

الفصل الأول

الأصول الأسطورية للصورة

مصادر صورة النار

تُعدُّ النار- بوصفها ظاهرة عرفها الإنسان الأول- من أهم وأخطر اكتشافاته وقد عُرِفَتْ بأنها الاختراع العظيم للجنس البشرى^(١) والتعرف على النار علامة واضحة، وخطوة حضارية لها أبعادها الثقافية^(٢) واكتشاف طريقة للحصول عليها يمكن وصفه بأنه من أهم خطوات الجنس البشرى على طريق التقدم،^(٣) حيث انتقل الإنسان باكتشافها من عصر كله حرمان إلى عصر استمتع فيه بأسباب الراحة والرفاهية الناتجة عن تسخيرها لها فهي القوة المبدعة فى الإنبات ومعالل للماء،^(٤) بل عدها بعضهم الأولى لبداية الأشياء، وبها توجد كل الأشياء^(٥) 0

ونحن لا نذهب بعيداً إذا قلنا بأن النار هى بالضبط الموضوع الأول أو الظاهرة الأولى التى انعكست عليها روح البشرية، والنار من بين جميع الظاهرات هى الظاهرة الوحيدة فى نظر إنسان ما قبل التاريخ التى تستحق الرغبة فى المعرفة.^(٦) وقد بلغ الأمر بجاستون بشلار إلى أن جعل استخدام النار فاصلا بين الإنسان وغيره من المخلوقات

- standard dictionary of folklore, mythology and legned ed Maria lech (1) funk and Wagnall company 1949 p 388

-the ency – Americana – international e dition – ncwYork pan - (٢)
American 1983 vol "1" p "24"

(٣)

- the ency of religion and ethics - NewYork1913v "6"p"26""73"

- dictionary of symbols and imagery. Ad peveries no 2 th Holland 4
publishing company – Amesterdam – London 3ed 1981 p "187"

- man myth and magic kathrinela law preanting – from Kathleen (٥)
briggs-collction 1889 – 1090 p"975"

(٦) النار فى التحليل النفسى : جاستون بشلار. ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس – بيروت

١٩٨٤ م ص ٥٣

كالنطق والتفكير قائلاً: " ولقد طالما تكرر على مسامعنا أن غزو النار قد فصل الإنسان عن الحيوان فصلاً نهائياً،^(٧)

وعلى هذا يمكن تعريف الإنسان وتمييزه عن الحيوان بأنه كائن مستخدمٌ للنار، ومن هنا تأتي أهمية معرفة كيف تصنع النار بقدر لا يقل عن أهمية اكتشافها، وذلك لما تقدم من تقريرات عن أهمية النار واستخداماتها الحيوية، ولما أضافته ولا تزال تصنيفه إلى حياة الإنسان من راحةٍ ويسرٍ في مأكله الناضج ومشروبه الدافئ وتدفئة الجو، وإضاءة الليل حوله.

ولا يقتصر هذا الفضل على الإنسان البدائي فحسب بل امتد إلى يومنا هذا، وفي أكثر الشعوب تقدماً، فالإنسان مدينٌ للنار بكثيرٍ من الخدمات، والإنسان إذا لم يوقد النار أثناء حياته في فترة ما كانت هذه الفترة فترة قحط وشدة وشظف عيش، يشهد على ذلك قول عائشة - رضى الله عنها - وهي تصف لعروة شدة عيشهم وقلة المؤنة في بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلة:

" والله يا بن أختي إن كنا ننظر الهلال إلى الهلال ثم الهلال : ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار" ^(٨)

وهذه إشارة إلى أهميتها ودلالاتها على الراحة ويسر العيش، ولذا قال جيمس فريزر: " إن إشعال النار أهم وأغنى المخترعات الإنسانية" ^(٩)، ويشير قاموس الكتاب المقدس إلى ذلك قائلاً: "ومنذ ذلك الحين - اكتشاف النار - والنار من المواد الأساسية في الكون بل هي

(٧) نفس المصدر ص ٥٣

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النووي، دار إحياء الكتب العربية القاهرة د٠ت ص ٢٤٢

(٢)-أساطير في أصل النار: جيمس فريزر ترجمة يوسف شلب الشام. دار الكندي دمشق ١٩٨٨ ص ٧

ركنٌ من المثلث الأساسي : " الماء- الهواء - النار " ويتكلم الكتاب المقدس عن الفوائد المتعددة للنار وطرق استعمالها.^(١٠)

ومن هنا حفرت النار لنفسها مكاناً في حُلدِ البشر فلا يكاد يستغنى عنها شعب بدائياً كان أو متحضراً وفي أمسِّ أمور حياته المعيشية، فهي علامة على استمرار الحياة في أى منزل وفي كل الحضارات، فالتسمانيون لم يسمحوا لنيرانهم أن تترك منازلهم، كما أن مدفأة المنزل في كوريا لا تطفأ أبداً، وفي الريف الأوربي وفي روسيا وبلغاريا كانوا يرفعون النار حتى جعلوها في المبدأ الأبدى، والإسرائيليون حملوا معهم نيرانهم في مصر والريف الروسى حمل ناره إلى داره الجديدة أينما وصل قائلاً : " مرحباً بك جدى فى دارك الجديد " ^(١١) وقد تطورت هذه المكانة لأهمية النار، والحصول عليها وطرقه ليس فى حدود الاستخدام النفعى الحياتى فحسب، بل أخذت شكلاً ثقافياً فى الحضارات القديمة.^(١٢) لقد أحبها الإنسان واستأنس بها ووجد راحته عندها وروى الجاحظ : أن أعرابياً اشتد عليه البرد فأصاب ناراً فدنا منها ليصطلى بها وهو يقول : اللهم لا تحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة"^(١٣)

وهذا المثل يقال حتى اليوم على نفس الشاكلة: " اللهم لا تحرمنيها وأبى " أو " اللهم اجعلها مثواى وأبى "، ولا تتوقف النار عن سريانها فى العقل الإنسانى مسيطرة على أفكار الإنسان ومشاعره حتى كانت عامة تشمل أكثر من ظاهرة طبيعية ونفسية، وتجتمع فيها المتناقضات فهى تهيب أدوات فى مختلف الميادين " الحرارة - والنار " - حيث أنها تتيح

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٥٠٠ بطرس عبد الملاك وآخرون - مكتبة المشعل بيروت ١٩٨١ المادة "نور" ص ٩٨٣

(٤) - Echy religion and ethics. Vol "6" p "27"

(٥) المصر السابق "26" p

(٦) الحيوان للجاحظ تحقيق د٠ فوزى عطوى، دار صعب بيروت ١٩٨٣ - ص ١٧٨ : ١٧٩

المناسبة لذكريات لاينالها البلى، فالنار ذات امتيان، تفسر كل شىء : " فهى الحى الأعلى، وهى داخلية وخارجية، تحيا فى قلوبنا وتحيا فى السماء، تصاعد من أعماق الجوهر وتتبدى لنا حبا، ثم تعود فتهبط فى قلب المادة، وتختفى كامنةً منطوية كالحقد والانتقام، وهى الوحيدة من بين جميع الظاهرات التى يمكنها أن تتقبل كلتا القيمتين المضادتين: " الخير والشر" (١٤)

أنها تتألق فى الفردوس وتستعر فى الجحيم، عذوبة وعذاب، مسرة للطفل يجلس وديعاً قرب الموقد غير أنها تعاقب على كل عصيان إذا ما أريد الدنو منها كثيرا والعبث بلهبها، هناءً واحترام إله حارس ورهيب، طيب وخبث، يمكن أن تتناقض مع نفسها لذلك كانت ولداً من مبادئ التفسير العلمي (١٥)

وقد ساد الاعتقاد زمناً طويلاً بأنَّ حلَّ اللغز المركزى للكون يتوقف على حل لغز النار لدرجة أن " بربرهاف" قال فى سنة ١٧٢٠م: " إذا أخطأت فى تبين طبيعية النار امتد بك الخطأ إلى جميع فروع الفيزياء، وما ذلك إلا لأن النار دوماً هى العامل الرئيسى فى جميع ما تنتجه الطبيعة" (١٦)

وعلى الرغم من مكانة النار التى طرحتها الظاهرة النارية كمسألة أساسية على النفس البدائية، كان العلم المعاصر يضرب صفحاً عنها، وقد شهدت كتب الكيمياء على مر الأزمنة تناقضا تدريجيا فى الفصول المعقودة عن النار (١٧) النار لم تعد موضوعاً علمياً، ويذكر جاستون بشلار معقباً على كلامه: " حين يعرض لنا أن نتوجه إلى

(١) Ency – of Religion v "6' p "27" (١)

(٢) النار فى التحليل النفسى : جاستون بشلار . ترجمة نهاد خياطة ص ١١

(١٦) المرجع السابق ص ٥٨

(١٧) نفسه ص ٦

بعض المثقفين لا إلى بعض العلماء، كما فعلت ذلك مرارا بسؤال عن ماهية النار تأتي الأجوبة غامضة أو حشوية تعيد لا شعوريا أقدم النظريات الفلسفية وأشدها إيغالاً "في الأوهام".

وقد لاقى الباحث فعلاً مثل هذه الظروف في المراحل الأولى من البحث، فإذا كان هذا شأن إنسان العصر الحديث، فما بالناس بالإنسان البدائي؟ بكل ما تعنيه كلمة (البدائي)، فهو الذى لا يملك تفسيراً للظواهر حوله إلا انطباعاته النفسية ودوافعه الروحية نحو الأشياء حوله فاتخذ الآلهة وتشبثت بالأساطير، من هنا التحقت النار بركب الأساطير فى نشأتها وأصلها وغموض أسرارها وعلاقتها بغيرها من ظواهر الكون، كل ذلك الغموض كان له أثره فى تفكير الإنسان تجاه ظاهرة النار وانفعالاته بها.

ولذا كان حتماً على البحث فى صورة النار عند شعراء الجاهليين أن يعود إلى الأسطورة علّها تفسر بعض الغموض فى ظاهرة النار وهنا يأتى دورها كما يقول جيمس فريزر: " ومن أجل أن يكون تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم تاريخاً كاملاً غير منقوص ينبغى علينا أن نبدأ بعرض للميثولوجيا " (١٨)، والميثولوجيا هنا تحل كثيراً من الرموز لهذه الظاهرة فهى أداة كشف وتعليل لكثير من قضايا الإنسان، والأشياء التى تلعب دوراً أساسياً فى حياته، " فعن أسطورة الأصل الأساسية تتفرع مجموعة الأساطير للأصول الثانوية التى تحكى بدايات الأشياء التى تلعب دوراً أساسياً فى حياة الإنسان كالزراعة والكتابة والسدود ---- وما إلى ذلك، وأن معظم ما يستعمله الإنسان ويفيد منه فى حياته وحضاراته إن هو إلا إنتاج نموذجى بدئى مقدس صنعتها الآلهة بيدها أو أوحى

(١٨) أساطير فى أصل النار جيمس فريزر ترجمة يوسف شلب الشام، مرجع سابق ص ٦

به" (١٩) وبهذا المنطق تكون النار أحد هذه الأشياء التى لها ممارسات طبيعية تسترعى انتباه البدائى وتجبره على تعليلها، فالرغبة فى المعرفة وتفسير الظواهر الخفية والأرواح والكائنات السحرية وخلق الكون والقوى المحركة له، فما الماء؟ وكيف جاء----؟ وما النور؟ ومن يتسلط عليه----؟ وفيم تفجر الأرض بالنار واندلاع البرق---؟ كل هذه التساؤلات صنعت ما يمكن تسميته الأسطورة التعليلية على حد تسمية الدكتور أحمد كمال زكى فى كتابه الأساطير: وهى " طقوسية، ورمزية، وتعليلية، وتاريخية" (٢٠)

فتعليل ظواهر الطبيعة صار أسطورة، وكما يعرض فراس السواح فى كتابه، ويرجع هذا الاتجاه كل الأساطير إلى منشأ طبيعى يتصل بعناصر الطبيعة، "فكثير من الأساطير كان باعته القمر، وكثير منها كان يتركز حول الشمس وآخر وهبته الطبيعة ظواهر الطقس المختلفة كالصواعق والرعد والبرق" (٢١)

ويذهب البعض إلى أن الأسطورة استوعبت قلق الإنسان الوجودي، وحلت إشكالاته مع ظواهر الحياة، فهي مجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان القديم فيقول :-

" عندما انتصب الإنسان على قائمين رفع رأسه إلى السماء ورأى نجومها وحركتها وأدار رأسه فرأى الأرض وتضاريسها ونباتها وحيوانها----- ثم قال: "وبعد حدود رد الفعل كان عليه أن يبدأ مغامرة كبرى مع الكون أولى نحو المعرفة فكانت الأسطورة" (٢٢)

(٢) مغامرة العقل الأولى فراس السواح، دار الكلمة للنشر، بيروت سنة ١٩٨٢ الطبعة الثالثة ص ٢٥

(٣) الأساطير د. أحمد كمال زكى - سلسلة المكتبة الثقافية . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة مارس ١٩٦٧، ص ٤، ٥ .

(٤) مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص ١٠

(٢٢) مغامرة العقل الأولى، فراس السواح ص ١٥ .

وما أشد الغموض والإبهام في ظواهر الطبيعة حول البدائي، فكل شيءٍ حوله يحتاج تفسيرًا، وعلاوة على الأسطورة- كحلٍ وحيدٍ لديه - أندفع الإنسان الأول إلى الروحي من السلوكيات والتفسيرات حتى غلب الدافع الروحي على الدافع العقلي لدى الإنسان البدائي^(٢٣) ولغرابة النار وأهميتها الواضحة والمتمثلة في الحرارة والضوء سيطرت بشكل خرافي على خيال الإنسان القديم واستمرت هذه السيطرة على مر التاريخ والحضارات متحلية في الأساطير التي تترجم أفكار وأحلام البشر.

ويعتقد الهنود أنَّ الحرارة هي التي ساعدت على خلق الإنسان والكون: " فقبل الوجود والعدم كان الخواء المائي المعتم ثم نشأت جرثومة الحياة بفعل الحرارة ومن هذه الجرثومة نشأت الخليقة"^(٢٤)

والأمر لا ينتهي عند الاعتقاد في الحرارة بهذا الشكل فحسب بل يتجاوزها إلى انعكاس نفسي تظهر آثاره على الإنسان مترجمًا " في الأحاسيس فيروى الجاحظ :

" أن رجلاً ألقى في ماء راكد في شتاء بارد في ليلة من الحنادس، لا قمر ولا ساهور فما زال الرجل حيا، وهو في ذلك بارد وجامد مادام ينظر إلى نار كانت تجاه وجهه في قرية أو مصباح، فلما أطفئت انتفض"^(٢٥) "

(٢) راجع الحكاية الخرافية فريدرش دبرلاين ترجمة د. نبييلة إبراهيم، دار القلم بيروت ١٩٧٣ ص ٧٥ : ٧٨

(٣) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك لندن ١٩٨٧ ص ٥٩

(٤) الحيوان للجاحظ تحقيق فوزي عطوي دار صعب بيروت ١٩٨٣، ح ٥ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

وقد انجذب الباحث نحو هذه الرواية حينما كان في حديثه مع إنسان معاصر قد تعدى الثمانين من عمره . قال حينما دعي للتدفئة على النار: أنه يدفأ بعينيه عن بعد ولا يحب الاقتراب من النار لأسباب صحية .

وهذا إيحاء عكسته رؤية النار، وتجسد في هذه الأحاسيس والمشاعر التي ورثها إنسان كل العصور وعليه عُدت الحرارة أساساً لاحترام الناس للنار من أقدم الأزمنة كقوة خالقة تجسدت في الشمس، وقد عدها الفلاسفة القدماء مجرىً لطيفاً هو صفة القوة الخالقة أو مظهرها أو ذاتها، وهي الروح الخفية في الكائنات الحية، ولذا كان كثير من الأمم يحترمون الشمس ويجعلونها في المرتبة الأولى من المعبودات" (٢٦)

وعُدت النار من آلهة العالم السفلى القوية عند سكان " مناغيا" وهي أربعة أولها : ماديك "إله النار" وثانيها " را " " إله الشمس" الذي يرجح جيمس فريزر بأنه هو "رع" (٢٧)

أساطير في أصل النار

ولما كان للنار في تاريخ البشر هذه المكانة، كان حتماً على الشعوب البدائية أن تميل في تفسيرات هذه الظاهرة إلى الأساطير التي تجمعت متضافرة في وجدان الإنسان الأول نتيجة لتجاربه البدائية مكونة ذاكرة كبرى وهي ما يسمى باللاشعور الجمعي، وقد أشار د. مصطفى ناصف إلى ذلك نقلاً عن كارل يونج في كتاب الصورة الأدبية إلى أن الذكريات الشخصية لبعض الأشياء مرتبطة بحالات وجدانية ارتباطاً لا يمكن تحليله، ف وراء هذه الذكريات - وفقاً لنظرية يونج - بعض النماذج أو الصور البدائية الأولى للاستجابة الموروثة

(٢٦) دائرة المعارف ، المعلم بطرس البستاني مطبعة المعارف بيروت ١٨٨٨ - ٦ ص ٧٥٦ ، ٧٥٧

(٢) أساطير في أصل النار : جيمس فريزر ص ٨٦

لأجيالٍ عدّةٍ في السلف، وهذه الصور تلوح من بعيد غامضة وراء التجربة الحاضرة وتؤثر تأثيراً خافياً في النفس" (٢٨).

لذا ظهرت التفسيرات حول موضوع النار وانعكاساتها على أغلب

الشعوب متشابهة، وبخاصة أساطير نشأتها وبداية معرفتها، وإذا عدنا للتقارير الأثرية وجدنا أنها تشير إلى التحكم في النار هو عنصر في قديم له فترة من الزمان لم تتحدد حتى الآن، فكان الظهور الأول للنار علامةً مستمرةً على الحياة في فرنسا، وصناعة النار عرفت في عصر "البلاستوسين" Plastoncene ٥٠ مليون سنة وعرفت في الصين، واشتغل بها الأوربيون، واستخدمت للتدفئة من برودة الجو، ومعرفة النار والتحكم فيها له إشارات متشابهة بين كثير من الشعوب، (٢٩) وثمة شعوبٍ أخرى – قد أفادت من معرفة النار والتحكم فيها بشكل خرافي – ولم نتحدث بإسهاب عن تلك الحرمانات التي تعرضت لها البشرية في العصر الخالي من النار والتي أظهرت اضطرابها لطهو الطعام في حرارة الشمس، -- وهو أشد الحرمانات التي سببها للبشر فقد النار (٣٠) وقد عرض جيمس فريزر لما كانت تعانيه الشعوب الأولى في العصر الخالي من النار في الحكايات القديمة على امتداد العالم (٣١) واختراع عملية للحصول على النار نسجت حولها كثير من الأساطير، "غالباً" مائحاً إلى الخيال. (٣٢)

(٣) الصورة الأدبية ٠ د٠ مصطفى ناصف دار مصر للطباعة٠ مصر ١٩٥٨ ص ١٩٤

The ency – Americana v "1" p "2

(4

(١) أساطير في أصل النار جيمس فريزر ص ٢٣٢

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ ، ٢٣٢

(٣)

وقد لجأ الباحث لرصد هذه الأساطير في أصل النار لا لذاتها ولكن لتحتت خيوط الخيال واتجاهاته حول ظاهرة النار وانعكاساته على سلوك الإنسان ورؤاه قبلها، مع الإيجاز قدر المستطاع . فقد عُدَّت النارُ - مثل الكتابةِ والفنونِ دوماً أسرار إلهية جيء بها إلى الأرض إما كرمماً من الآلهة أو عُنوةً واغتصاباً: " يقول مفسر وقصة الخليفة : إنَّ الله خلق السموات من نورِ ردهائه وحَاك الله لفتين إحداهما من نارٍ والثانية من ثلج ليخلق منهما الكون، واثننتين أخريين من نارٍ وماء ليخلق منهما السموات" (٣٣)

وتذكر الدائرة اليهودية الرؤية العبرية في نار السماء حيث: " نزلت النار من السماء عندما رغب الله ليتدخل في قضايا الإنسان . إنها في ذلك تُعد مفاتيح المعبد حيث " جو كافيا" jocniah رغب أن يبتعد عن " نوبو خدانصر" ويهرب بعيداً "عن الأرض ماذا يقول الإنجيل ؟ نار غريبة Strange fire لذلك وعد الله العالم بأنه لا يزور العالم بالطوفان مرة أخرى" (٣٤)

من هذه الأخبار تتضح العلاقة بين النار والإله الخالق بشكل أسطوري، وتتجه أسطورة نشأة النار وأصلها إلى عالم الحيوان، وتتشعب معه حاملة رموراً تترجم كثيراً من الظواهر، وتفصح عن كثير من أحلام وعقائد الإنسان فعند " الأوركينا" في غنيا الجديدة يجلب النار كلب أجرب ويسبح بها وهي معلقة في ذيله عابراً البحيرة (٣٥)

(٤) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك ص ٤٤

The Jewish ency- Funk and magnaells Company 1904 Newyork and London vol "4" p "393" (٥)

(٦) أساطير في أصل النار ص ٤٩ .

ويلاحظ في هذه الأسطورة عدم تأثر النار بماء البحيرة إذن هي نار غير عادية في خيال صانع الأسطورة ويلاحظ فريزر ارتباط النار بالكلب حتى اليوم (٣٦) وعند سكان استراليا الوسطي يُحصَل على النار موجودة في العضو الذكري للكنغر "الأورو" بعد قتله وهنا تقترب الأسطورة من الجنس (٣٧) وفي معجم الفلكلور والأساطير والسحر إشارة إلى أن النار انتقلت للإنسان بواسطة سلسلة من الحيوانات بتمريرها بينهم من حيوان لآخر (٣٨) ورأى شائع بين الأمريكيان الهنود بأنها نقلت خلال سلسلة من الحيوانات وبعد كثير من الصعوبات يتسلمها الإنسان، وشارك في ذلك الثدييات والطيور والزواحف والأسماك. (٣٩)

ولم تصدر هذه الخيالات عبثاً، وإنما كانت تعليلاً لظواهر حول منشأ الأسطورة لدى الشعوب ويشير فريزر في كتابه لذلك (٤٠) وتتحول مسيرة أساطير أصل النار من الحيوانات إلى عالم الأشجار واختزانها للنار حيث يذكر فريزر: "أن النار بدأت من احتكاك فروع الشجر ولاحظتها امرأة عجوز" (٤١) وقد ذكرت الدائرة الأمريكية: "أن استخراج النار تطور بتدليك فروع الأشجار في الريح". (٤٢)

(٣٦) نفس المرجع السابق ص ٤٩

(٣٧) نفسه ص ٣١

(٣٨) - Standar ditonary p0"390"

The ency – Americana v "1" p "242" (٤)

(٥) أساطير في أصل النار ص ٢٤٥

(٦) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٨٨

ح ١ ص ٢٢٤

(٧) -The ency – Americana vol "1" p "242" (٨)

الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك ص ٤٥

ولم تغفل الأساطير الإنسان ودوره مع قصص أصل ونشأة النار، بعد ربطها بالآلهة والحيوانات والأشجار، فتحكى أسطورة أن آدم أبا البشر عندما تسأل كيف يجترح النور؟ أعطاه الله حجرين : أحدهما يدعى حجر الظلام، والآخر شبح الموت وضربهما ببعضهما فقدحا نارا وقال الله " وهكذا تم اجتراحها" (٤٣)

ويذكر فريزر أن : صانع النار الأول في جزيرة " مايوباغ" كان طفلاً صغيراً اسمه "كوبامو" كان يملك ناراً في طرف السبابة من يده اليمنى " (٤٤) وفى غينيا الجديدة واستراليا أساطير تذكر أن النار في أصبع سادس بين السبابة والإبهام لامرأة عجوز (٤٥) وفى جزيرة مايوباغ " تخبئها امرأة في عشب ويسرقها منها تمساح" (٤٦)

وتقترب الأسطورة من الجنس حيث تخرج النار من أعضاء التناسل أو قريبا منها أو من التقاء الجنسين ففي " واغاوغا" شرق غينيا الجديدة تخرج المرأة النار لتستخدمها في طهو طعامها من بين فخذيهما (٤٧) وتصل صراحة إلى الغرض الجنسي عندما تخفيها امرأتان بين فرجيهما حتى لا يراها زوجها (٤٨) ثم تطورت الأسطورة إلى أن تنتج النار من التماس امرأة برجل وهنا تصل الأسطورة في منتهى الصراحة في التعبير عن الحلم البشري الصادر عن فطرة الإنسان البدائي، ففي "الماران" جنوبي غينيا الجديدة حدث يوما " أن رجلاً مطلقاً على الأسرار اسمه " وابا" عانق امرأته عناقاً شديداً حتى أنه لم يستطع أن

(١) - (٢) - (٣) - (٤) أساطير في أصل النار ص ٤٥ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٥٣ ، بتصريف يسير في الصياغة
(٥) نفسه ص ٣١
(٦) نفسه ص ٥٥

(٧) أساطير في أصل النار ص ١١٩

ينفصل عنها رغم كل ما بُذِل من جهودٍ وأخيراً " جاء لِنجدتهما كائناً فوق الطبيعة وعند فصلهما انبثق دخانٌ ولهيبٌ من احتكاك جسديهما فكان ذلك أصل إشعال النار بعودين من الخشب، ويفسرون غاية النار على أنها تمثل الحركة الجنسية بين زوجي الخيزران (٤٩) ولعل هذه الأسطورة ناتجة عن أصل جعل الناس يربطون حتى اليوم بين النار ووصف المرأة والجنس وارتباط اللون الأحمر بالذات بالجنس كلون ناري ساخن، وسيلاحظ ذلك فى ارتباط النار بصورة المرأة وجهها وحليتها---- إلخ في صور الشعر الجاهلي في الجزء التطبيقي.

ثم تستقر أساطير أصل النار وتقترب من الواقع العقلي لطريقة الحصول عليها بشكل علمي، ففي سيبيريا عند القبائل التترية تنتج النار عن طريق ثلاث بنات لرجل من حد الحجر وقوة الحديد (٥٠)

وتشير الدائرة اليهودية إلى إن بعض العبرانيين استخدم قطعيتين من الخشب فى صناعة النار كما تشير إلى حجر النار "Firstone" (٥١)

وتذكر بعض المصادر أن الإنسان الأول عرف النار وحصل عليها صدفةً أثناء احتكاك الحجر فاستخدم حجر القداح " Flint " وكبريتوز الحديد " Pgrites " واستخدمها الإسكيمو فى الأسكا .

وإن كانت حكايات أصل النار قد اقتربت من الواقع، فقد رأينا أيضاً اقترابها من الأسطورة فى الحكايات التي نسجت حولها مثل : تزواج الشجر والحجر، أو كمون النار فى أغصان الأشجار .

وهذا العرض وإن طال وبدأ للوهلة الأولى إطناباً في جزئية صغيرة إلا أنه لفت النظر لمناقشة ظاهرة النار كأسطورة في نشأتها مع الإنسان الأول ويعد هذا تمهيداً لاستقبال أساطير النار في جوانب البحث الأخرى.

علاقة النار بالكواكب في الأساطير القديمة

ارتبطت الكواكب بالنار في عقل الإنسان القديم بشكل جذلي فتارة تكون النار أصلاً تفرعت منه الكواكب، وتارة تكون الكواكب أصلاً للنار ومصدراً أساسياً لها. وهنا أحاول الإجابة على تساؤل يطرح نفسه عند النظر في البحث وهو ما علاقة النار بالكواكب؟؟؟

لقد دلت المأثورات الأسطورية التي جُمعت حول هذه الجزئية على مدى ارتباط النار بالكواكب، مع ملاحظة أننا لا نقيم الظاهرة أو هذه العلاقة بمنطوق وخبرات الإنسان المعاصر بعد هذا التطور الهائل والتخصص الدقيق في نواحي المعرفة، ولكن ننظر لهذه العلاقة من خلال رؤية الإنسان القديم وتفسيراته حتى يتسنى لنا تحليل أفكاره وكشف الغموض عن الطواهر الفنية في إنتاجه الأدبي عن وعى بتراكيبه الفكرية.

فإذا تناولنا العلاقة بين النار والشمس، وهي علاقة متميزة حيث تراكمت فيها الأخبار بشكل جذلي تتبادل فيه النار والشمس الأمومة، فالنار أم الشمس في بعض المصادر ففي شرق غينيا الجديدة امرأة تُخرج النار من بين فخذها تلد الشمس والقمر في شكل ناري وترسلها إلى السماء للإضاءة والحرارة (٥٢) وأن أصل الشمس كما تحكى الأساطير

(١) أساطير في أصل النار ص ٧٥

كان شرارة تحت الأرض " براهيم" الهندي وجعلها أثلاثاً فثَلثتُ منها هي النار المعهودة
والمحتاجة للحطب والمنطفئة بالماء، وثَلثت هي الشمس، وثَلثت هو البرق" (٥٣)

فقد عرض صمويل نوح كريمير تحت عنوان " الأساطير الإبرائية :

" للروح الحي " مهر يازرد" والإله مئرا " ومعاقبته قوى الظلام الشيطانية وذكر أن الأبراج
الاثني عشر والكواكب السبعة قامت حكماً على العالم بأسره أما الشمس والقمر فقد سُويَا
من نور لم يلوث" (٥٤).

وحقيقة الشمس في حلم جان بول : " أن الشمس بعدّها ابنة للأرض قد قذفت بها
إلى السماء فوهة جبل منصهر" (٥٥) وقد تطورت هذه الأسطورة حتى تجسدت في
ممارسات وطقوس حَالمًا يحدث كسوف للشمس وذلك عند قبائل " الكميتشانكا" يحضرون
النار في أكواخهم ويصلون مبتهلين إلى الكوكب المضيء العظيم الذي يتألق من جديد كما
كان يفعل من قبل (٥٦) .

والشمس مصدر للنار كما ذكرت كثير من المصادر التاريخية عند كثير من الشعوب
(٥٧) وهذه المصدرية لم تأت عبثاً وإنما – كما يذكر د. جواد على : لما في الشمس من أثر

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني عالم الكتب بيروت ١٩٨٣
طبعة ٢ ص ٣٥٨ .

(١) أساطير العالم القديم : صمويل نوح كريمير ترجمة د. أحمد عبد الحميد يونس، الهيئة

المصرية العامة للكتاب مصر ١٩٧٤ ص ٣٠٠ ، ٣٠١

(٢) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ٢٠

(٣) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د. أحمد أبو زيد الهيئة المصرية للكتاب مصر ١٩٧١
ص ٢٩٠

(٤) مصر والحياة المصرية القديمة أوديلف إرمان إنكه ترجمة عبد المنعم أبو بكر مكتبة النهضة
المصرية د٠ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

بارز في الزرع والأرض وفي حياة الإنسان بصورة مطلقة (٥٨) وهذا الأثر يتلخص في حرارتها ويشير لذلك فراس السواح : ويتأثير حرارة الشمس انفصلت الأشياء وطارت في مكانها لتلتقي في الهواء وتتصادم، فنشأت البروق والرعود وعلى صوتها أفاقَت الحيوانات مذعورة وراحت تنتقل على اليابسة وفي البحر ذكوراً وإناثاً (٥٩) وهذه القيمة الحرارية لا تقرأها الأساطير القديمة فقط بل العلم في العصر الحديث أيضاً، فيعرض المعلم بطرس البستاني في دائرته :

" أن الشمس هي المصدر الرئيسي للحرارة ومن أقوال "مابري" و"أثرسون" و"طمسن" وهلمهولتس"، وقال : بحسب كل الرأيين تعد الشمس مصدراً عظيماً لحرارة إشعاعية تستمد منها الأرض حرارتها، وقد استمدت منها عدداً

من السنين لا يحصى في أكثر الأدوار الجيولوجية (٦٠) ويتابع قائلاً : ويظهر من حسابات يوليه أن الشمس تشع في الساعة مقداراً من الحرارة يعدل ما يُشعّه اشتعال طبقة من فحم حجري إثناسيتي سمكها ١٠ أقدام (٦١) وأحياناً كانت الشمس تمثل مانع النار " Giver of Fire" وابتكرت كثير من الأساطير حكايات تشرح كيف بزغت النار من هذا المصدر الشمسي، وكيف كان الإنسان يفترض أنه يستطيع أن يتسلق إلى الشمس مستخدماً حبالاً عبر السحاب أو مسافراً عبر خط الاستواء ليحصل على النار (٦٢) .

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠ ط ٣ ،

٤٢ ص ٢٢

(٦) مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص ١٠٠ ، ١٠١

(١) دائرة المعارف ٠ المعلم بطرس البستاني مطبعة المعارف بيروت ١٩٨٣ ح ٦ ص ٧٥٨

(٢) نفسه ح ٦ ص ٧٥٨

(٣) -The ency – Americana vol "11" p "242

وقد ربطت بعض المصادر بين النار والشمس أيضاً قائلةً عن النار: إنها انبعاث من الشمس وهي نائبةً عن الشمس في الكوكب الأرضي وبهذا فهي ترتبط بأشعة الضوء والإنارة وبالذهب، ثم تستطرد في نفس الصفحة قائلةً: فكل النيران في العالم تؤخذ في أي لحظة من السنة الشمس (٦٣) .

وعند الصينيين كانت الطقوس الشمسية ترمز إلى الحاجز الأحمر الذي يرمز إلى "الإله"

كما كانوا يسمونه "تشانج" إنه يرمز إلى عنصر النار، وفي الهيروغرافية المصرية كانت النار لها علاقة رمزية شمسية تتعلق بشكل خاص بمفهوم الحياة، ويشير قاموس الرموز في نفس الصفحة إلى أن المرحلة الأولى تؤكد أن النار منبعثة من الشمس (٦٤)

ويقول بشلار أيضاً إنَّ مبدأً أعتداء الكواكب بالنار يبدو في غاية الوضوح ونحن قبلنا بالفكرة الشائعة جداً حتى القرن الثامن عشر ومفادها أن جميع الكواكب من جوهر سماوي واحد هو "النار اللطيفة" (٦٥)

وتنتقل علاقة النار من الشمس إلى القمر بالتبعية فهو أب في الثالوث السماوي المشهور وقد ربط د. نجيب ميخائيل، عبادة "سين" "إله القمر" وزوجته بعبادة النار ٦٦ وهو أبو أوتو إله الشمس في

الأسطورة السومرية (٦٧) .

(٤) - dictionary of symbol and Emagery p"187"

(٥) -Dictonary of symbol p "105"

(٦) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ٦٣

(٧) مصر والشرق الأدنى القديم د. نجيب ميخائيل دار المعارف مصر ١٩٦١ ح ٦ ص ١٢٤

وقد أشار جيمس فريزر إلى هذه العلاقة عند الهنود الحمر حيث " إنهم كانوا يدفنون في الأرض قطع الخشب المشتعل في وقت خسوف القمر باعتقادهم أنه إذا انطفأ نور القمر فسوف تنطفى كل نار على الأرض ماعدا النار التي اختفت عن ناظره" (٦٨)

ويشير فريزر إلى أساطير متعددة تربط بين النجوم والنار قائلًا : وثمة أساطير أخرى تربط أصل النار بالنجوم أكثر مما تربطها بالشمس والقمر، ويبدو أن التسمانيين ربطوا بين صانعي أول نار على الأرض وبين النجمين التوأمين "كاستور"، "وبولوكس" (٦٩)

ويعرض أيضاً : "أن أصل النار يقترن بالثريا أو النجوم السبعة، ويفترض أيضاً أن أناساً من الوطنيين في تسمانيا يربطون أيضاً بين النيران الأرضية والنيران السماوية في بادئ الأمر كانت على الأرض" (٧٠) وفى قبيلة " أويستراي " في تسمانيا أن رجلين أسودين هما اللذان أوقدا النار وصعدا إلى الغيوم وفى الليلة الصافية تراهما كنجمين وتذكر بعض الرويات أن هذين النجمين هما

" Pollux, Castor "

(١) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ١٥٢

(٢) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة .أحمد أبو زيد الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة

١٩٧١ ص ٢٩٠

(٣) أساطير في أصل النار جيمس فريزر ص ٢٣٥

(٤) نفسه ص ١١ ، ٢٦ .

اللاشعور الجمعي وظاهرة النار

أخذت ظاهرة النار من محصلة هذا التراكم مكانةً في أفكار البشر على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وديانتهم، لذا نحاول رصد أنماطها حريصين على توثيقها في الفكر البشري بصفة كلية بمقارنة معتقدات العرب وممارساتهم مع النار ومعتقدات وممارسات غيرهم من شعوب العالم، حيث تقترب الظاهرة من الأنماط العليا أو "اللاشعور الجمعي" •

وظاهرة النار ظاهرة مهمة في حياة البشر، وتقييمها على الشريحة العقلية للإنسان بشكل عام لا يقل أهمية عن دراسة جسم الإنسان بشكل تشريحي لإدراك التقارب والتشابه بين رؤى وتصورات البشر لهذه الظاهرة على اختلاف أجناسهم وتباعد أوطانهم وأزمنتهم، حيث يكشف لنا هذا التقارب عن الهواجس والأحلام التي طالما أثرت في تشكيل مضامين التأليف الأدبي عند الإنسان القديم •

والتعامل مع ظاهرة النار والنور والاعتقادات حولها أخذت شكلاً نمطياً بين كثير من الشعوب بتشابه عجيب تعجز عن تفسيره وتعليله علة الهجرة أو وحدة الأصل^(٧١) ورغم تباعد الأوطان والأصول واللغات والديانات إلا أن الرؤية تبدو وكأنها تنبت عن أصل واحد هو "الإرث" الفكرة التي نبعث عند باحثي الأنثروبولوجيا^(٧٢) والتي عدت وحدة سيكولوجية يشترك فيها الناس جميعاً من حيث هي رواسب لأشكال أولية متتابعة مرت بها المجتمعات البشرية^(٧٣) •

(٧١) المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي د. عبد الفتاح محمد أحمد، دار المناهل للطباعة

والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٧ ص ٣٨ •

(٧٢) نفسه ص ٨٦

(٧٣) راجع قصة الأنثروبولوجيا د. حسين فهيم سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة

هذه الوحدة تمثل طوراً سحرياً مقابلاً للطور الحجري من حياة الإنسان وثقافته في كل مكان من العالم،^(٧٤) والتي خَلَفَتْ حكايات خرافية ومعتقدات شبيهة بقطع أحجار متناثرة تمتد كلما رجعنا إلى الوراء بل إنها فيما يبدو كانت تُكوِّن المضمون الأدبي لأقدم التأليفات الأدبية"^(٧٥)

وقد أرجع ديرلاين - بشكل قطعي - موضوعات الحكاية الخرافية إلى تصورات دينية انتشرت في جميع أنحاء العالم^(٧٦)

وهذه التصورات تبرز في ظاهرة النار التي تصورها الإنسان القديم في شكل إله خَيْرٍ متمثلاً للهب أو النور الذي بلغت شهرته ذروتها في إلهي الشمس والقمر، فصارت آلهة النار والنور نمطاً متكرراً في شتى أنحاء الأرض وعلى مختلف العصور وحتى يومنا هذا في بعض المناطق، وإن لم تكن آلهة بشكل مباشر كانت عنصراً خَيْراً وجوهراً لطيفاً وعلامةً على الصلاح بقبول القرابين، وإن كان قد اعتراها التطور إلا أنها لا تزال متشابهة بشكل مباشر كان أو بشكل رمزي، فحكاياتها الخرافية تمثل بعض الطرز البدائية القديمة في حياة الإنسان^(٧٧)

والفنون والآداب الكويت ١٩٨٦، ص ١٣٦ .

(٤) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د. أحمد أبو زيد - ص ١ ص ٢٣٠

(٥) الحكايات الخرافية فريد ريش فون ديرلاين ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع

والنشر القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٩

(١) نفسه ص ٣٩

(٢) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة إبراهيم - ص ١ ص ٧١

ويبدو أنَّ كل إنسانٍ كيفما كان تحضُّرُه، يحتفظ في داخله بنسخةٍ من إنسان بدائي، هذا الإنسان ينزلق مسترسلاً من جيلٍ لآخر في سلالة البشر بشكل وراثي يلاحظ ذلك من خلال الاحترام والوقار الذي تنطوي عليه أنفسنا للنار بشكل لا شعوري لا نستطيع الجزم بأن كل مهابة النار موكولة للشكل البرجماتي فيها فحسب، بل هناك رواسب في ذاكرتنا الكبرى تحوى أسراراً مع النار والنور.

ومن هنا كان التشابه بين الكثير من معتقدات شعوب العالم وممارساتهم – رغم ما يفصل بينها من مسافات زمانية ومكانية – مع ظاهرة النار، وقد أُنر هذا التشابه في كثير من تصرفات الإنسان حتى هذا العصر وفي شتى المجالات التطبيقية والنظرية وأساليب وضع الحلول العلمية .

وقد استخدم الدكتور طه حسين هذه الحقيقة في إثبات قضية " الانتحال " في الشعر الجاهلي؛^(٧٨) فتشابه الظروف ينتج تشابه الظواهر وتشابه الحلول والممارسات والأفكار، وسيعرض الباحث ظاهرة النار للاختبار تحت هذه الحقيقة؛ لاستكشاف مكانتها عند شعوب العالم القديم ومدى تأثير الإنسان وانفعاله تجاهها، وهذا يستوجب منا الطواف على بعض شعوب العالم القديم للكشف عن هذه المكانة لظاهرة النار في ذاكرة الإنسان القديم ومدى التشابه بين هذه الشعوب وبين العرب من خلال صورة النار.

(٣) راجع في الأدب الجاهلي طه حسين، دار المعارف مصر ١٩٧٧ ص ١١٤
وقد ربط الدكتور بين الانتحال في الشعر اليوناني والروماني والانتحال في الشعر العربي .

ظاهرة النار قديماً بين العرب وغيرهم

احتلت ظاهرة النار مكاناً مهماً في لا شعور الإنسان الجمعي عند مختلف الشعوب رغم تباعد الأزمنة والأماكن واللغات، فهي متناثرة بين شعوب الأرض قاطبة، بأشكال متنوعة ومتناظرة بشكل يستدعي النظر والبحث، فهي تظهر عند أغلب الشعوب كإله مقدس حافظ، أو تظهر في طقوس سحرية لمواجهة الطبيعة بشكل رئيسي فعال أو مستخدمة في صورة عنصر حربي مقاتل، أو دلالة على التحاكم والعقاب والتطهير والكرم والإطعام والراحة، أو ملتحمة بصورة الإنسان رجلاً وامرأة بدلالات دينية ورمزية.

وإذا حاولنا في عجلة تتبع ظاهرة النار لدى شعوب العالم وجدناها في صورة الإله المقدس المعبود فهي عند سكان أمريكا الجنوبية بين القبائل الهندية القديمة جد أكبر، والدخان عندهم يحمل كلمات الصلوات إلى الإله الأعظم^(٧٩) وكان الهنود أيضاً وسكان أمريكا الجنوبية يحملون المشاعل عند دخولهم الغابات المظلمة لا لغرض الإنارة وإنما ليرعبوا الأرواح الشريرة التي تسكن تلك الأماكن^(٨٠) وهذا دليل على قداستها لديهم كإله حافظ. وكان سكان جزيرة تيمور " timor " يقيمون رئيس الكهنة في المعبد ويحرص على أن تظل النار مشتعلة " باستمرار، لأن انطفائها يؤدي إلى نزول الكوارث بالأبطال المحاربين^(٨١) وفي أساطير الرومان إشارات إلى أن النار المقدسة وأخايدها لها علاقة بالمعبد الكبير من آلهة النار في العصر القديم، وارتباطها بالأساطير العالمية، كما ظهرت أهمية النار في التاريخ البشري في المخطوطات القديمة فكان " Vedic " أو " Agni " هو

(١) - Stander Dictionary p "390"

(٢) - Man myth and magic p " 970"

(٣) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د. أحمد أبو زيد ج١ ص ١٤٧ ، ١٤٨

رسول النار والتجسيم والتخصيص لنار الذبيحة إلى اليوم " فالبرهمان " يدافعون عن النار المقدسة لعبادتهم مثل الرومان الذين عبدوا النار المقدسة الأبدية (٨٢)

والإله أجنى "Agni" أو فيدك " Vedic " كان يمثل الحامي الصائن

" Protector " ضد الظلام، والإله " Baai " كان يختص بالذبائح البشرية التي تقدم للنار وكان يمثل إلهها أعظم

للغونيك " العنقاء " وكان له علاقة بالإله " جيبيل " الذي عهد في سيبيريا البدائية باسم إله النار الروماني " Vulcan " (٨٣)

وهنا نلاحظ التشابه بين اسم هذا الإله الناري واسم البركان " Volcano "

وفى الكتاب المقدس كمصدر للديانة المسيحية يظهر الإله في صورة نار منتقمة ففي رسائل بولس إلى العبرانيين يذكر الرب في صورة نار آكلة : " تخدم الله خدمة

مرضية بخشوع وتقوى لأن إلهنا نار آكلة " (٨٤) والشمس كأصل للنار أو أحد صورها في الفكر القديم يشترك المصريون والكلدانيون في عبادتها فيقول د. عبد المحسن الخشاب : "

إن اللوحات المسماة التي وجدت بتل العمارنة تثبت الصلة بين المصريين والكلدانيين في هذا العهد وهم أكثر الناس تخصصاً " في علم الفلك وكانوا يعبدون الشمس " ثم يقول "

فيكون إخناتون طبق فكرة عالمية عبادة الشمس المصرية القديمة أي الكزموقراطية" (٨٥) ثم يشير د. نجيب ميخائيل إلى أن هليوبوليس - عين شمس الحالية - مركز لعبادة " رع "

(٤) - The new Ency – Britanica vol " 4 " p " 788"

(١) - The new Ency- Americana vol " 11 " p " 242"

(٢) الكتاب المقدس رسالة بولس عبرانيين" ١٢ : ٢٩ "

(٣) تاريخ اليهود القديم بمصر د. عبد المحسن الخشاب مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٩ ص ٨٨

إله الشمس " (٨٦) وقد عثر على تقدمه فلا هرم ونيس بها إشارات تنم عن الإله الشمس : " ضياء وليس كضياء بقرة آتوم- مثل زهرة اللوتس عند أنف رع -----" (٨٧) وحتى يشرق كل يوم في الأفق تظهر الآلهة نوره" (٨٨)

ويقول صمويل نوح كريمير: " إن فكرة إله الشمس رع لا تفارق المصريين خلال الثلاثة آلاف سنة ق.م، وله علاقة بحورس، وأوزوريس (٨٩) والصينيون اعتقدوا أن النار إله تقدم له القرابين لإرضائه ولتكفير الذنوب (٩٠) وفي الشمال الشرقي لقارة آسيا تعطى "تشوكس" أهمية كبيرة للألواح النار وأيضاً تبين أن الكرياكين اللذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية يعدون هذه الألواح آلهة نار البيت، حارسة مسكن الأسرة ينسبون لهل القدرة السحرية على حماية قطع الأثاث (٩١) وعند الفرس كانت النار من أشهر معبوداتهم وهم أشهر من عبد النار وعظمها وأول من عبدها وبني لها البيوت هو "أفريدون" (٩٢).

ويذكر النويرى أن أول من عظمها من ملوك الفرس هو "جم" أحد ملوكهم ودعا الناس لتعظيمها (٩٣) وذكر الجاحظ أن زرادشت هو الذي عظم النار وأمر بإحيائها ونهى عن

-
- (٤) مصر والشرق الأدنى القديم د. نجيب ميخائيل ص ١٣٤
(٥) الرمز والأسطورة في مصر القديمة رندل كلارك مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٤ ص ٦٢، ٦٣
(٦) مصر والحياة المصرية القديمة أولدف إرمان ص ٣٨٤ .
(٧) راجع أساطير العالم القديم صمويل نوح كريمير ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - ١٩٧٤، ص ٣٥، ٤٠
(٨)

Mauntain Rains-Anew Biogoraphy of gams Frazer Elean crossmass

p "141"

- (١) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة إبراهيم د ٢ ص ٤٢١
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للسعودي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت ١٤ ص ٥ ص ٢٥٢
(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، مصر د. ١٠٥ ص ١٠٥

إطفائها^(٩٤)) ومن الفرس أيضاً من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب فكانوا يتقربون إلى الهياكل كُلِّ تقرب^(٩٥) . وكان من الصيامية من توجهوا في عبادتهم إلى النيران تعظيماً لها^(٩٦) . وزعموا مع الكينوية أنها أحد الأصول الثلاثة " النار - الأرض - الماء " ذلك لأن النار بطبيعتها حَيِّرة نورانية والماء ضدها^(٩٧)) وكان "خواق" رئيس الزمازمة من نيسابور يعبد النيران^(٩٨)) ويروي الألوسي أن من عبادتهم لها أنهم يحفرون لها أخدوداً مربعاً ويطوفون به، وهم أصناف مختلفة وطائفة منهم تبلغ بهم عبادتها أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها وهم أكثر ملوك الهند وأتباعهم^(٩٩)) وأما المجوس فقد عبدوها لدرجة أنهم سُمُّوا بهذه الصفة، فقد ورد أن كلمة مجوس من الكلمات العربية عربت من كلمة " Maghos ماغوس الفارسية التي تعنى عبادة النار^(١٠٠)) وكأنها أبرز ما عرف به المجوس وعرفهم عبد الله أمين في كتاب الاشتقاق بأنهم: " جيل من الناس يقولون بالأصلين النور والظلمة وأن الخير من النور الشر من الظلمة^(١٠١)) " وكان مما سنه زرادشت عبادة النار والصلاة إلى الشمس، يتأولون فيها أنها ملكة العالم، وأنها التي تأتي بالنهار وتذهب بالليل^(١٠٢))

(٤) الحيوان للجاحظ تحقيق فوزي عطوى دار صعب بيروت ١٩٨٧ حـ ص ٢١٠

(٥) الملل والنحل للشهرستاني مكتبة الخانجي . مصر د . ت حـ ٢ ص ١٤٧

(٦) نفسه حـ ٢ ص ٩٠

(٧) نفسه حـ ٢ ص ٩١

(٨) نفسه حـ ٢ ص ٧٩ ، ٨٠

(٩) بلوغ الأرب للالوسي دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٥ حـ ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥

(١٠) غرائب اللغة نقلا عن المفصل في تاريخ العرب د. جواد على ت حـ ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥

(١١) الاشتقاق عبد الله أمين مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر ١٩٦٥ ص ٣١

(١٢) تلييس إبليس لابن الجوزي دار المتنبني مصر د . ت حـ ٧٥ .

أما عن الساميين القدماء فيلاحظ إله النار "نسكو" في أرض الرافدين هو الذي يحرق القرايين المقدسة في الطقوس الدينية، وهو رسول "Sukkal" الآلهة، فهو يتوسط عند تقديم القرايين (١٠٣) ويظهر الإله مردوخ في أساطير الدمار في صورة نارية : خاطب إبراهيم مردوخ مختالا عليه :

أيها الرب إن الهالة النورانية رمز ألوهيتك المشعة أبداً كنجم سماوي

----- وقد كسرت وجنى لونها ----- اترك مكانك وانطلق ---- ونحو الدار التي ستظهر نارها عبادتك (١٠٤).

وقد حكي ول ديورانت طريقة الفينيقيين في التقرب للنار بالأطفال لإرضاء الآلهة (١٠٥)، وقد عبد البابليون آلهة كثيرة وأن "أور" كانت مركزاً لعبادة القمر وجرت عادة القوم أن يقدموا لهذا المعبود ضحايا بشرية (١٠٦).

وتأتى الشمس في المرتبة الثانية بعد القمر وكان السومريون يسمونه "Utu" أوتو، وأهل أوجوريت "شبس"، وكان يرمز له في بابل وأشور وسوريا وآسيا الصغرى، بقصر ذي جناحين، ومن ألقابه في الرافدين نور "العلم" ونور الأعالي والأعماق، ونور السموات والأرض، ونور الإلهة وهو الذي يحي الموتى ويسير الكون ---- الخ، وهو الذي أملى حمورابي أحكام القانون (١٠٧) وتظهر الشمس في ملحمة جلجامش إلهة يعطى أوامره بدخول

(١) الحضارات السامية القديمة سبتيو موسكاتى ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الرقى بيروت ١٩٨٦

ص ٢٥٦ : ٢٥٨ هومش الفصل الرابع

(٢) مغامرة العقل الأولى ٠ فراس السواح ص ١٦١

(٣) قصة الحضارة ول ديورانت الشرق الأدنى القديم، ترجمة محمد بدران حـ ٢ مجلد أول لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٧١ ص ٣١٥

(٤) التاريخ في كتاب، تلخيص حبيب سعيد، دار الترجمة والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر ص ٧

(٥) مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، ص ٣٤، ٦٩، وراجع ص ٢٦، ٢٧، ٦٢ وراجع

الحضارات السامية القديمة موسكاتى ١١٩، ٢٥٥، ٢٥٦

(٦) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة، على الشوك ص ١٠٣، ١٠٤

(٧) قصص الأنبياء لابن كثير المكتبة التوفيقية مصر ١٩٨٢ ص ١٢٩، ١٣٣ وراجع سورة

السفينة وعلق أبوابها، والشمس أيضاً " إله بطل اسمه "أوتو" في السومارية (١٠٨) وقد أشار ابن كثير إلى عبادة الكواكب في منطقة الشرق قبل إبراهيم عليه السلام ، حيث كانوا يعبدون الكواكب السبعة والذين عمروا مدينة دمشق --- وقد ناقش تقلب إبراهيم - عليه السلام - مع الكواكب (١٠٩)

وقد عبد الإغريق كوكب الزهرة في صورة "أفريدون" وهي عند الرومان " فينوس " وهي "عشتار" (١١٠) وعند العبريين " ياهوه" نفسه كان يتشكل على شكل النار أو على شكل دخان مثل : موسى على الجبل " نبيحة رابضة محترقة، وهكذا حتى قالها الرب ليشوع " أليست كلمتي مثل النار" (١١١)

وقد أورد الجاحظ كثيراً من الأخبار التي تدل على مكانة النار لدى الإسرائيليين حيث جعلها الله لهم موضوع امتحان إخلاصهم وصدق نياتهم ، ، ومما زاد من عظيم شأنها في نفوسهم ، أن الله ظهر لموسى وكلمه من وسط النار، وذكر نار إبراهيم التي صارت برداً وسلاماً عليه (١١٢) وقد تعددت مواضع ظهور الرب مقترناً بصور النار في أرجاء الكتاب المقدس (١١٣) .

الأنعام آية ٧٨ : ٨٠

(١) الحضارات السامية القديمة سبتيونوموسكاتى ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ هوامش فصل ١

(٢) "187" dictionary of sumbol and Emagery p-

(٣) الحيوان للجاحظ ، تحقيق فوزي عطوى ح ٥ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٦

(٤) سفر الخروج ٣ : ٢ ، ٣ : ٢١ ، ١٤ : ٣٤ ، ١٩ : ١٨ ، ٢٩ : ٣٨ ، ٣٤ : ١٧

أما عن النار عند العرب فمن الطبيعي أن يدلوا بدلوههم في موضوع النار خاصة، وهم قوم شديدو التأثير ببيئتهم الصحراوية الحارة والعرب أكثر الناس التصاقاً وتأثراً ببيئتهم الصحراوية، وهم يسكنون مكاناً يعد مركزاً لالتقاء ثقافات العالم القديم المذكورة آنفاً " علاوة على ترسبات تاريخهم الحافل في منطقة الشرق الأدنى القديم، فقد اعتقد بعض القرشيين بالنور والظلمة راعمين أنهم أخذوا هذا الاعتقاد من الخبرة ويسمى الإخباريون أصحاب هذا الرأي " بالثانوية" وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش "الزنادقة". (١١٤)

وقد ذُكرت أيضاً "نار الحدثان" التي ظهرت بين المدينة ومكة ، وهم بعض العرب بعبادتها تشبهاً بالمجوس فأطفأها خالد بن سنان (١١٥).

وقد أشار الدكتور أحمد أمين إلى معرفة العرب لعبادة النار لدى الفرس وبخاصة مذهب مانى ، وتأثرهم به (١١٦) وقد أشار الجاحظ أيضاً لعبادة النار والكواكب " النار العلوية" كالشمس والكواكب ، وذكر

الآية " وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله" (١١٧) واستدل ابن الجوزي بقول ابن جرير الطبري في عبادة قابيل للنار بعد قتل أخيه " وسؤل له إبليس ذلك قائلاً له إنما

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي ج ٦ ص ١٤٥

(٦) نفسه ج ٦ ص ١٤٥ نقلاً عن محاضرات الأبرار ج ١ ص ٧٧، نزهة الجليس ج ٢ ص ٤٠٦

وراجع معجم ما استعجم للبكري ج ٢ ص ٤٣٥ ، ٤٣٦

(٧) فجر الإسلام د. احمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية "مصر ١٩٦٥" ط ١ ص ١٠١ : ١٠٥

(٨) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مطبعة مصطفى الحلبي مصر ١٩٦٦ ج ٤ ص ٤٧٨ ، ٤٧٩

(١) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون مطبعة مصطفى الحلبي مصر ١٩٦٦ ج ٤ ص ٤٧٨ ، ٤٧٩

قُبِلَ قريباُ أُخِيكَ وَأَكَلْتَهُ النَّارَ، لِأَنَّهُ كَانَ يَخْدُمُ النَّارَ وَيُعْبِدُهَا، فَانصَبُ أَنْتَ نَاراً تَكُنُ لَكَ وَلِعَقْبِكَ" (١١٨) كما علل لعبادة الشمس أيضاً بتزيين إبليس للقوم (١١٩) وقد ذكر الدكتور محمد عبد المعين خان قصة بنى آدم وربطها بعبادة القوم للنار، حيث حفروا الأخدود لها على شكل مربع ويحشوها ويملئونها وقوداً، ثم لا يدعون طعاماً ولا شراباً ولا عطراً ولا جوهرًا إلا طرحوه فيها تقرباً لها (١٢٠) وقد تحدث الدميري أيضاً عن طائر العنقاء وعلاقته بالشمس، وحديث خالد بن سنان ومَنَعَهُ لِنَارِ الْحَدِثَانِ (١٢١) وقد أشار الدكتور جواد على إلى صنم المحرق، وظن بعض المستشرقين أنه عرف بهذا الاسم بين العرب، لأن عبده كانوا يقدمون إليه بعض القرابين البشرية محرقة (١٢٢) .

وقد ورد أن النساء في الجاهلية كن يرغبن في تحريق أنفسهن (١٢٣) كما كانت النيران تحمل في تشييع الجنائز وتتبعها النوائح وقد نهى الإسلام عن ذلك لأنه من شعائر الجاهلية (١٢٤) وعند القلقشندي ثلاث عشرة ناراً وذكر نار المزدلفة، والاستمطار، والطف، والطرده، والحرب، والثعالي، والصيد، والأسد، والقرى، والسليم، والعذراء، والوسم، (١٢٥) وزاد البغدادي عليها نار الحباب ونار اليراعي (١٢٦) وذكر النويري أربع عشرة ناراً بزيادة نار الزائر أو المسافر- علاوة على النيران التي

(٢) تلبس إبليس لابن الجوزي ص ٦٢

(٣) نفسه ص ٦٢

(٤) الأساطير العربية قبل الإسلام محمد عبد المعين خان ، مطبعة لجنة الثقافة والترجمة ،

مصر ١٩٣٧، ص ٨٨، ٨٩

(٥) حياة الحيوان الكبرى كمال الدين الدميري مطبعة الاستقامة نشر المكتبة التجارية الكبرى

مصر ١٩٦٣ ج ٢ - ص ١٦٣، ١٦٤

(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد على ج ٦ - ص ٢٨١

(٧) مروج الذهب للمسعودي دار الأندلس بيروت ١٩٨٣ - ص ١٧٩

(٨) أديان العرب في الجاهلية محمد نعمان الجارم - مطبعة السعادة مصر ١٩٢٣ ص ٩١

(٩) صبح الأعشى للقلقشندي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مصر د ٢٠٠٤ ص ٤٠٩

يُضرب بها المثل مثل : " نار الحباب، ونار الغضي، ونار العرفج، ونار الحلفاء (١٢٧))
وزاد الألوسى نار الأهبة ونار الحلفى ، ونار العرفج(١٢٨)) وزاد الجاحظ في الحيوان نار
تهويل السباع (١٢٩)) وقد تعرض لهذه الظاهرة كتاب الكشكول وعرض لنيران العرب في
الجاهلية (١٣٠)) وقد ورد في كتب متفرقة عن كل نوع مما ذكر من نيران العرب على حدة ،
وأيضاً في متفرقات شعرية في مجموعات ودواوين (١٣١))
واعتقد بعد هذا التراكم من الأخبار أنه لا ينكر دور العرب ومواكبتهم لشعوب العالم في
مثيولوجيا النار، والتأريخ لها في كتب أخبارهم وتاريخهم ، وسنحاول رصد أنماط تعاملهم
وممارستهم مع الظاهرة محاولين تطبيق هذه الظواهر على ماصدر في العصر الجاهلي من
شعر إن شاء الله .

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى ح١ ص ١٠١ : ١١٤

(٢) بلوغ الأرب للالوسى ح٢ ص ١٦١ : ١٦٧

(٣) الحيوان للجاحظ ح٥ ص ١٧١ : ١٧٧

(٤) الكشكول بهاء الدين العاملى تحقيق الطاهر أحمد الزاوي ، طبعة دار إحياء الكتب العربية

١٩٦١ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥

(٥) الأصمعيات للأصمعي ، تحقيق هارون وشاكر ، دار المعارف مصر ١٩٧٩ ط٢ ص ١٩١

وراجع الحيوان ح٢ ص ٤٨٤

النار إله حاكم رهيب ومنتقم

تتسم ظاهرة النار بأنها تحمل وجهي عملة واحدة " الخير والشر" فهي بطبيعتها تعكس ازدواجية الرؤية فهي عند المسيحيين الأوائل تأخذ صورة بشعة مرعبة إذ وضعوا الحية باستخدامها في شكل إرهابي ذات رأسين أو أكثر وذات أرجل وأجنحة أو ذات لسان يندلع بالشر ويقذف باللهب (١٣٢) وعند المصريين القدماء هي القوة والسلطة (١٣٣) وهي حيوان أسطوري يأكل ويهضم ويتبرز الدخان، حيوان ساحر لا يشبع يلتهم كل ما يلد ويتكاثر ثم يلتهم نفسه بعد أن يكون قد أتى على كل شيء (١٣٤) لذا استخدمت في الدفاع وطرد الأعداء والوحوش عند بعض الشعوب الآسيوية، إن كان تشارينج الإمبراطور الأسطوري يأمر شعبه أن يستخدم النار في استخراج الثعابين والحيوانات المتوحشة وإبعاد الأعداء (١٣٥) وكان المذنب يخاف النار، وتتجنبها الفتيات أثناء فترة الحيض الأولى، وقد استخدم يهوه النار في الدفاع عن بنى إسرائيل بظهوره ليلاً" نار تزعج عسكر المصريين وهم يطاردون موسى وأصحابه (١٣٦) ونار الإله منتقمة له يدافع بها عن حرّماته، وتحاسب على عهد الرب، بل الرب نفسه نار آكلة (١٣٧) ويحمى الرب غضبه حين يسمع شراً، وتشتعل فيهم نار الرب،

(٦) إبليس، عباس العقاد سلسلة كتاب اليوم مصر ١٩٧٩ ط ١٩١ وراجع الحيوان حـ ٢ ص ٤٨٤

(٧) - dictionary of symbol and Emagery p"187"

(٨) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ٦٢ .

(١) - Stander Dictionary p "370"

(٢) - Ency of Religion vol "6" p "27"

(٣) سفر الخروج ١٤ : ٢٤

وتخدم النار عند رضا الرب بعد صلاة موسى (١٣٨) ويسلط يهوه ناره على سدوم وعمورة في نوبة من نوبات غضبه (١٣٩).

وكانت النار في هذه المنطقة تستخدم للعقاب لقوتها والتصاق القداسة بها؛ مما جعلها موضع تحاكم واختبار وتطهير وعقاب للمجرم ومحاكمته " Ordeals " بالتعذيب وذلك بإخضاعه لضروب من الامتحان الخطير (١٤٠).

وقد أخذت المراسم الدينية مع النار في هذا الغرض - محاكمة المتهم أو إثبات براءته - أشكالاً عدة منها المشي على النار Fire walking الذي كان يستخدم عند الرومان القدماء وما زالت تروى في الهند حتى الآن ، حكايات الشخص الذي يسير على النار عاري القدمين على جمرات " Embers " من النار أو صخور ملتهبة (١٤١) وقد ارتبطت هذه العمليات التي تسمى بـ " الحريق الديني " بأفكار متسعة الانتشار وإن كانت تبدو معقدة فهي فكرة من الطقوس الهمجية (١٤٢)

(٤) راجع سفر التثنية ٤: ٢٣ ، ٢٤

(٥) سفر العدد ١: ١

(٦) الأسطورة والوعي عصام الدين حنفي ناصف ، دار العلم الجديد ، القاهرة ١٩٧٦ ص ٥٩

(٧) - Ency of Religion vol "6" p "791"

(٨) - The Ency Americana vol " 11 " p " 257"

- Ency - of Religion vol "6" p "27"

وقد عرض فريزر لحرق النساء لخيطة يعقدنه تمثل كل عقدة قصة عشق مع أحد الرجال ، وذلك أمام النار في المعبد وتعلن بصوت عال أسماء الرجال الذين سجلتهم على الخيط، وحين تلتهم الآلهة الخيط في لهيبها الصافي تكون ذنوبها قد غُسلت تماماً" (١٤٣)

وكان الهنود يستخدمون طقساً شبيهاً باستخدام النار أيضاً لحرق عقد الخيط الممثلة لخطايا العشق (١٤٤)

لذا انتشرت نار الحرب والبطش بالعدو في كثير من كتب الأخبار والأدب وسميت صراحة بنار الحرب (١٤٥).

وهذه الصورة المهيبة للنار على قدر قسوتها ، جعلت منها قوة رادعة لكل مخالفة أو إخلال أو اعتداء فكما استخدمت في الحرب استخدمت عند التحالف والتحاكم والاختبار والتطهير، فقد اعتقد العرب في الجاهلية أنها قوة سحرية، فأوقدوها في الحلف المقدس وأشهرها بها الغادرين (١٤٦) وقد أورد الطبري قصة إسلام "ثُبَّع" وتحاكمهم إلى النار (١٤٧) وقد كان للعرب عند تحالفهم مراسم دينية دخلت فيها النار بشكل فعّال حيث تشعل النار وتغمس الأيادي في الطيب (١٤٨) ويتحدث د. حسين عطوان عن نظام الأحناف وصيغها الدينية

(١) الغصن الذهبي جيمس فريزر ح١ ص ١٤٢، ١٤٣

(٢) - Stander Dictionary p "381"

(٣) راجع صبح الأعشى للقلقشندي ح١ ص ٤٠٩، وخزائن الأدب ح٧ ص ١٤٧، ١٥٠، الحيوان ح٥ ص ١٧١، ١٧٢

، ونهاية الأرب ح٥ ص ١٠١، ١١٤، وبلوغ الأرب ح٢ ص ١٦١، ١٦٧

(٤) المطر في الشعر الجاهلي د. أنور أبو سويلم دار الجيل عمان ١٩٨٧ ص ٩٥، ٩٦

(٥) تفسير الطبري مجلد ١١ ح ٢٩ ص ٦٧ دار المعرفة بيروت ١٩٨٧

(٦) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي لمنذر الجابوري بغداد ١٩٨٦ دار الشؤون الثقافية

العامة ص ٦٣ .

(١٤٩) وقد ذكر الجاحظ أنهم كانوا يدعون على من ينقض العهد ويحنث بالقسم وهم يتحالفون على النار (١٥٠)

وهذا قد أشارت الدائرة الأمريكية حيث الدور الكبير للنار في نظام العقيدة وارتباطه بالطقوس (١٥١) وقد جاء في البيان والتبيين شعري يحمل هذه الدلالات على استخدام النار في الحلف مثل قول أوس بن حجر:

إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمَهْوَلِ حَالِفُ

وقول الآخر:

حَلَفْتُ بِالْمَلْحِ وَالْجَمْعُ شَهْدُ وَبِالنَّارِ وَاللَّاتِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ

وقول الكميت:

كَهَوْلَةٍ مَا أَوْقَدَ الْمُحْلِفُونَ لَدَى الْحَالِفِينَ وَمَا هَؤُلَاءُ

وقول أوس أيضاً:

حَلَفْتُ بِالْمَلْحِ وَبِالرَّمَادِ وَبِاللَّهِ أَرِ وَبِاللَّهِ تَسْلِمُ الْحَلْفَةُ

حَتَّى يَظِلَّ الْجَوَادُ مَنَعِفَرًا وَيَخْضِبُ النَّيْلُ غُرَّةَ الدَّرْقَةِ (١٥٢)

(٧) مقدمة القصيدة الجاهلية د. حسين عطوان دار المعارف مصر ١٩٧٠ ص ٣٦

(٨) الحيوان للجاحظ تحقيق فوزي عطوى صعب بيروت ١٩٨٣ ح ٥ ص ١٥٠

(١) The Ency Americana vol " 11 " p " 257"

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٥

وأيضاً في الخزانة أورد البغدادي للكهنة قوله:

هَمْ خَوْفُونِي بِالْعَمَى هُوَّةَ الرَّوِي كما شَبَّ نَارَ الْحَالِفِينَ الْمَهُولُ (١٥٣)

وقد ورد أن نارا كانت في اليمن تحكم بينهم فيما يختلفون ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم وقد عرضوا على تبع التحاكم لها (١٥٤) وفيما ورد من سجع الكهان سجع الخزاعي الكاهن لأمية بن عبد شمس، وهاشم بن عبد مناف: " أحلف بالضوء وبالظلمة وما بتهمة من تهمة ... إلخ " (١٥٥)

وقد كان التحالف حتى على آثار النار كالرماد ويفسر بعضهم قول الأعشى:

رضيحي لبان ثدي أم تحالفاً باسحم داج عوض لا تتفرق

بأنها تحالفاً على الرماد كما يفعل الفرس (١٥٦) وهذه الصورة التي أخذتها النار في العقلية البدائية فرضتها في الحلف في شكل الابتلاء، والابتلاء اختبار صدق المتهم في جريمة ما، له صورته المتنوعة وأكثرها شيوعاً الابتلاء عن طريق النار (١٥٧) وهذا يشير إلى ما للنار من قوة وقداسة في العصور القديمة وحتى اليوم في المناطق البدوية، حتى كان طقس المشي على النار لتطهير المشترك في جريمة، أو الناطق بالكذب فيقوم بالسير على النار ليثبت براءته

(٣) خزانة الأدب للبغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون الهيئة العامة للكتاب

مصر ١٩٧٩ ص ٧٢ ص ١٥٢

(٤) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ٥٠ ص ١

ص ٤

(٥) تاريخ الكامل لابن الأثير القاهرة المطبعة الأزهرية د ١ سنة ١٣٠١ ص ٢ د ٨

١- الأسطورة عند العرب في الجاهلية د حسين الحاج حسن ، المؤسسة الجامعية للطباعة

والنشر بيروت ١٩٨٨ ص ١٣١

٢- راجع نظم العرب القبلية المعاصرة د محمود سلام زناتي ، مكتبة الجامعة بأسبوط ١٩٩٢ ط ٢ د ١ ص ٣٩٥

(١٥٨) وكان المتهم يخضع بنفسه لهذا الحكم الإلهي، باحثاً عن براءته بمروره على أكوام النار الملتهبة، أو حاملاً أسياخ النار في يده وكان هذا متبعاً في ذلك الوقت بين معظم الأمم (١٥٩) وهذه المعتقدات الأسطورية التي تحمل ملامح الاحترام والتقديس والمهابة للنار، جعلتها تستخدم لاختبار براءته المتهم، (ولم يتوقف ذلك عند الأمم القديمة فحسب، بل امتد في ذاكرة الإنسان، حتى عصرنا هذا الاعتقاد الجازم بأن النار من الكائنات الخارقة)، وأخذ شكلاً من أشكال الكهانة كما يشير د. محمود زنتي (١٦٠) حيث أفرد جزءاً من كتابه عما يسمى "بالبشعة واصفاً طقوسها ومراسمها في البيئة العربية ودور النار في كثير من القضايا كقوة سحرية رادعة تحرق لسان الكاذب والمُعْتدى". (١٦١)

٣- The new Ency – Britanica vol " 4 " p "791"

٤- Man myth and magic p "970"

٥- راجع نظم العرب القبلية د. محمود سلام زنتي ص ٤١٤

٦- راجع التفاصيل في نفس المرجع السابق ص ٤٠١ : ٤٠٨

النار في الصورة الخيِّرة

" نار الكرم "

إذا كان للنارِ - كما سبق - وجهها المخيف المرعب والقاسي، مما جعلها تستدعى صور الحرب والاعتداء، وتدخلت في طقوس التحاكم والعقاب والتطهير، فإن لها صورتها الأخرى الخيِّرة فهي تجمع المتناقضات وتستقر فيها وجوه النفع والضرر، وقد ناقش هذه الظاهرة وعرض الأدلة عليها قاموس الكتاب المقدس (١٦٢) ففي النار رمز للحياة والدفاء والحنان والأمان، فالنار هي الشكل الأرضي للنور السماوي والخلود، وهي رمز للانهاية واللاموت (١٦٣) وضمن أشكالها الخيِّرة كعنصر مطعم أنها كانت توقد على المذبح في صلاة إخناتون في المزمور الثاني، لأن غضبه لا يهدأ إلا بالتضحيات التي تحرق على المذبح ويُسرلرائحتها كثيراً (١٦٤) وسما اعتقاد المصريين في النار حتى عُدَّ الإله نوراً في عصر نصوص التوابيت (١٦٥) وكان الناس في روما يعبدونها أمام الموقد الخاص الموجود في كل بيت وهي تقابل في ذلك الإله " هستيا " عند الإغريق (١٦٦) .

(١) راجع قاموس الكتاب المقدس مادة "نار" ص ٩٨٣

(٢) - Ency-of Religion vol "6" p "30" (٢)

(٣) مغامرة العقل الأول فراس السواح ص ١١٠

(٤) الرمز والأسطورة في مصر القديمة رندل كلارك ص ٧٠

(٥) الغصن الذهبي جيمس فريزر، ترجمة أحمد أبو زيد، ص ١٠٥

وكانت الموائد المنزلية في روما لا تنطفئ ناره، بعدّها ممثلة لمذابح الإلهة " فستا" التي كانت تمثل انطباعاً خيراً، وتدخل طقوس الزواج والميلاد^(١٦٧) وهذا يشير إلى البعد الخيّر في النظرة إلى النار كعنصر حياة مطعم مبارك حافظ، وهي في الفلكلور كانت رحيمة تدفئ الأرواح طاهرة في ذاتها، وكانت المرأة في فترة حيضها بوصفها غير متطهرة يحرم عليها النظر إلى النار أو المرور بين يديها^(١٦٨) .

أما في المسيحية فالنار هي القديس والرب في نفس الوقت والأضحية هي ما يحرق، والنار هي أيضاً كشفيع تحمل إلى رب الشمس والنور، وإخماد النيران هو علامة للموت والندم في الطقوس وإعادتها هو حدث سحري^(١٦٩)

وقد ناقش قاموس الكتاب المقدس النور في معانٍ رمزية ولكنها تتقارب إلى حد ما من رموز النار وتشبيهاها^(١٧٠)

وقد تدخلت النار في تقديم التقدّمات على المذابح والمحرقات، فكانت تقدم التقدّمات ليهوه بالمحرقات^(١٧١) وموسى يقدم التقدّمات على المذبح الذي بناه ويشعل النار بنفسه^(١٧٢) لأن الإله كان ينتعش من رائحة الدخان المتصاعد، وأنه كان يغضب

(٦) راجع القرابين البشرية والمذابح التلمودية عند الوثنيين واليهود د. فتحي محمد الزغبي

مطبعة غباشي بطنطا حـ١، ١٩٩٠ ص ٨٦

(٧) - dictionary of symbol and Emagery p"188"

(١) dictionary of symbol and Emagery p"187"

(٢) راجع قاموس الكتاب المقدس ٩٨٤

(٣) راجع سفر التكوين ٨: ٢٠

(٤) القرابين البشرية والمذابح التلمودية فتحي الزغبي ص "١٦"

أشد الغضب إذا لم تقدم إليه أو إذا قدمت في صورة غير الصورة المقررة في شريعتهم
(١٧٣)

وقد أشار ابن كثير والألوسی لذلك (١٧٤)، ومنها أيضاً أعلن الرب عهده لإبراهيم
في أتون يتصاعد منه الدخان وشعلة من النار (١٧٥).

وبهذا المدلول الخير للنار في التراث القديم بين شعوب المنطقة والعالم، تستطيع أن
تربط بين الرؤيا الخيرة للعرب تجاه النار والتي تمثلت بنار الكرم كمانحة للحياة، ورمز
للإطعام والأمومة التي يبحث عنها الإنسان في الصحراء والطبيعة القاسية حوله، خاصة
بالليل؛ لذا تواترت بين أخبار العرب أحاديث نار الكرم ومشعلها وتفأخروا بها بين
العشائر والقبائل والبطون، وقد ورد ذكر نار الكرم في أكثر كتب الخبر (١٧٦)

(٥) نفسه ص ٦٠

(٦) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٧، وبلوغ الأرب للألوسی ح ٢ ص ٢٣٣، ٢٣٤

(٧) الفولكلور في العهد القديم ح ١ ص ٤٦، ح ٢ ص ٣٤٢

(٨) راجع صبح الأعشى للقلقشندي ح ١ ص ٤٠٩، ونهاية الأرب للنويري ح ١ ص ١٠١: ١١٤

، وبلوغ الأرب للالوسی ح ٢ ص ١٦١: ١٦٧، والحيوان للجاحظ ح ٥ ص ١٧١: ١٧٢

النار في طقوس الاستمطار

استُخدمت النار بوجهها الخَيْر بشكلٍ سحري في جلب الخير عند الإنسان البدائي، وخاصة في عملية جلب المطر أو الاستمطار" وأيضاً في عملية دفع الضرر كالرياح أو المطر الغزير، وهذه دلالة مباشرة لتشبث الإنسان بها وتضرعه لها في أوقات شدته، لأنها عنصر مقدس خير، وقد عرض جيمس فريزر في غصنه الذهبي أن أهل القرى القريبة من دوربات "Dorpat" في روسيا يستخدمون النار أيضاً في السحر التشاكلي للحصول على المطر^(١٧٧) ، واستخدمت أيضاً لجلب المطر عند الإغريق واليونان، فقد كان سالمينوس "Salmanus" – ملك إبليس الأسطوري يقلد الرعد بجر الأباريق، ويقلد البرق باستخدام المشاعل المتوقدة^(١٧٨) ويذكر جيمس فريزر طقساً أسترالياً كانت تستخدم فيه النار بشكل طقسي سحري لاستئزال المطر وإبقائه وفي "ماينبور" أيضاً كانت تستخدم طريقة بواسطة النار في بريطانيا الجديدة وكذلك في أستراليا قبيلة "الأنولا" وقبائل التلوجو"^(١٧٩) وكان الإسكيمو يشعلونها على الساحل مقيمين حفلاً ويغنون حولها لتهدئة الرياح^(١٨٠) وطقوس الاستمطار عند العرب لا تحفى على من اطلع على كتب الأخبار والأدب حيث تصور الطقوس السحرية مع النار، فيروى الجاحظ أنهم إذا أرادوا الاستمطار في الجاهلية اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذناها وعراقبها السلح والعشر، ثم صعدوا بها جبلاً وعراً وأشعلوا النيران وضجوا بالدعاء والتضرع ، وكانوا يرون أن ذلك من

١- الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د. أحمد أبو زيد ج١ ص ٢٥١

٢- نفسه ج١ ص ٢٨٩

٣- نفسه ج١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥

٤- نفسه ج١ ص ٣٠١

أسباب السُّقيا (١٨١) وقد ذكر الدكتور جواد على ثلاثة أنواع من الشجروهي " السلع والعشر والشيرق" في طقس الاستمطار (١٨٢) .

وأورد في موضع آخر قول العجاج في هذه المناسبة :

سَأرَّ سَرَى مِنْ قَبْلِ الْعَيْنِ فَجَرَ
غُرَّ السَّحَابِ وَالْمَرَائِجَ الْبَكَرَ

والعين هنا قبلة بالعراق كانوا يتوجهون إليها عند عملية الاستمطار (١٨٣) ، وتابعه الألوسى عن نار الاستمطار ، وقد أحال التفصيل للحيوان عند الجاحظ ، وقد ربط بين عبادة النار عند العرب ، وعبادة البقر عند الهنود في هذه الظاهرة (١٨٤) وإذا تأملنا طقس الاستمطار ، نلاحظ علاقة ما بين عناصر هذا الطقس والغرض منه ، فالبقر حيوان غير عادى بل له رصيد أسطوري عريض لا يزال حتى يومنا في الهند وغيرها ، وعلاقته بالمطر قوية وخاصة الثور رمز الخصب والنماء ورمز الإله القمر المتحكم في المطر والسحاب ، فيذكر نيلسون أن العرب الجنوبيين قد اتخذوا من الثور رمزاً لإلهم القمر وقد دعي القمر في بعض النصوص ثوراً (١٨٥) .

٥- الحيوان للجاحظ ٤ ص ٤٦٦ ، ٤٧٠

٦- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد على ٦ ص ٢٢١

(١) المرجع السابق ٦ ص ٨١٦

(٢) بلوغ الأرب للالوسي ٢ ص ٣٢٣

(٣) التاريخ العربي القديم ديتالف نيلسون ترجمة فؤاد حسنين مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨ ص ٢٠٧

ويبدو أن هناك علاقة بين القمر وبفعل الذي يطلق عليه في اليمينية الجنوبية الرب، وهى نفس دلالة كلمة بعل لدى اللغويين العرب (١٨٦) ويشير د. عبدا لجبار المطلبي إلى هذه العلاقة قائلاً: "ويبدو أن النار المضرمة في حطب السلع والعشر، ما هي إلا تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله الثور (١٨٧)".

وإذا كان الثور رمزاً للإله القمر أحد أشكال النار أو النور وألهتها في الفكر القديم أو أحد أبنائها في الأسطورة، إذن لم نبعد عن حكايتنا مع النار كأم للالهة حيكت حولها الأساطير المختلفة .

وأما عن دور النار في طقس الاستمطار فلها دور لا يقل عن دور البقر في العقائد البدائية، بل هي الأصل في الطقس، فالنار إله النور وهى ربة الطهارة والنقاء، وقد أشار د. مصطفى الشورى إلى قداسة نار السلع والعشر (١٨٨) ويهمننا هنا العلاقة بين النار وإنزال المطر، فقد ارتبط المطر بالنار أصلاً في الحس اللغوي عند العرب بشكل دقيق وهذا الارتباط له دلالة رمزية على المعنى الروحي للنار فسموا المطر "ودقا" وسموا النار "وديقة" (١٨٩) .

(٤) لسان العرب لابن منظور، دار المعارف مصر د.ت مادة "بعل" حـ ١ ص ٣١٥، ٣١٧

وانظر المصباح المنير لأحمد المقرئ الفيومي تحقيق د. عبد العظيم الشناوي دار المعارف مصر ١٩٨٨ ص ٥٥، ٥٦ وراجع النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي د.ت. مصر حـ ١ ص ٨٤١

(٥) مواقف الأدب والنقد د. عبد الجبار المطلبي ص ١٠٧ نقلا عن المطر فى الشعر الجاهلي د. أنور أبو سويلم ص ٩٨

(١) الشعر الجاهلي تفسيراً أسطورياً د. مصطفى الشورى دار المعارف مصر ١٩٨٢ ص ٩٧

(٢) راجع اللسان مادة "ودق" حـ ٦ ص ٤٨٠٠

ومختار الصحاح مادة "ودق" والمعجم الوسيط إشراف عبد السلام هارون مطبعة مصر ١٩٦٠ حـ ٢ ص ١٠٣٣

(٣) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية د. إبراهيم عبد الرحمن مكتبة الشباب مصر ١٩٧٩ ص ٦٧، ٩٨

والبيئة العربية كانت جو " ملائماً" لاحتضان ونمو هذه الطقوس التي أشار إليها الدكتور إبراهيم عبد الرحمن بأنها الشكل الأول من أشكال الأساطير لدى الجاهليين قائلًا: " أما الشكل الأول فيتمثل في الأساطير التي ارتبطت بطقوس العبادة في ديانات الجاهليين، وتقف هذه الأساطير عند تسجيل الطقوس القولية التي تصاحب الطقوس القولية والعملية) (١٩٠)

النار والتصوير الميثولوجي للإنسان

ومن الصور الخيرة للنار في الخيال القديم استعارتها لرسم صورة الإنسان رجلاً كان أو امرأة؛ لأن في استعارة هذه الصور منها تمثلاً لآلهة عظيمة في عقيدة الإنسان القديم تملأ عليه حياته كالشمس والقمر والنار، فالنار مثلاً استخدمت كرمز للخصوبة أو نائباً عن الآلهة استخدمتها النساء في وضع أطفالهن حديثي الولادة عليها، وكان الأستراليون يستخدمون عصا النار في عملية الختان (١٩١) وكان العذارى المقدسات يشرفن على عبادة النار الأبدية في إقليم لاتيوم (١٩٢) وكان الهنود يتخذون تمثالين من الطين أحدهما في صورة رجل والآخر في صورة امرأة وهما يرمزان للشمس الإله الخالق (١٩٣) .

والشمس هي أيضاً "الإله" Utu " عند السوماريين " وشبش " عند أهل أجوربت وله رموز في بابل، وأشور، وسوريا، وآسيا الصغرى ، وهو في المرتبة بعد أبيه القمر (١٩٤) وهذه الصورة المقدسة للنار والشمس والتي يُوكَل لها تمثل صورة الإنسان كأنثى في شكل أمومي

- Ency -of Religion vol "6" p "28"

(٤)

(٥) الغصن الذهبي ١٠ ص ٧٦

(٦) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة إبراهيم ١٠ ص ٩٥

(١) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك ص ٥٣

راجع مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص ٤٨ عن اللوح الأول

خَيْر يهب الحياة والخصوبة بالميلاد والخلود، فالنار هي الشكل الأرضي للنور السماوي وهي رمز اللانهاية واللاموت (١٩٥) والعلاقة قوية بين الشمس كصورة من صور النار، بل يذهب البعض إلى الدافع لتعظيم النار هي نسبتها في العقل الإنساني البدائي إلى الشمس (١٩٦) .

• وعبادة الشمس عبادة متطورة في الفكر القديم ، حيث يقول العقاد: "إن عبادتها تستلزم درجة من الثقافة والتطور، وصورة المرأة كصورة خيرة نافعة على الأرض قد ارتبطت بصورة الشمس التي توسموا فيها الخير والخصب، وجعلوها مصدرا للعدل والقانون (١٩٧) .

ويشير الدكتور البطل إلى أن المرأة والغزاة والنخلة من الرموز التي توحدت في اللات التي هي الشمس (١٩٨) ، وهذه العلاقة تندرج تحت المستوى الرمزي والإشاري وهو ثاني مستويات التفكير الميثولوجي الديني عند الجاهليين كما وضحه الدكتور إبراهيم عبد الرحمن (١٩٩) ، ويظهر عنقزة هذه العلاقة صراحة في :

كَمْ لَيْلَةٍ عَانَقْتُ فِيهَا عَادَةً يَحْيَا بِهَا عِنْدَ الْمَنَامِ ضَجِيعُهَا

شَمْسٌ إِذَا طَلَعَتْ سَجَدَتْ جَلَالَةً لِحِمَالِهَا وَجَلَّ الظَّلَامُ طُلُوعَهَا (٢٠٠)

(٢) - Ency -of Religion vol "6" p "30"

(٣) الحكاية الخرافية فريدريش فون ديرلاين ترجمة د نبيلة إبراهيم ص ٨٣

(٤) الله - عباس محمود العقاد - دار المعارف مصر ط ٢ د ٤ ص ٣٦

في طريق الميثولوجيا عند العرب محمود سليم الحوت مطبعة دار الكتب بيروت ١٩٥٥ ص ٩١ : ٩٤

(٥) الصورة في الشعر العربي د علي البطل دار الأندلس ص ٨

(٦) بين القديم والجديد دراسات في الأدب والنقد د إبراهيم عبد الرحمن . مكتبة الشباب مصر ص ٥٧ .

(٧) شرح ديوان عنقزة ص ٨٢ دار الكتب العلمية، بيروت ط ١ ١٩٨٥ .

وقد أوردت كتب التاريخ عن عبادة الشمس في البيئة العربية كثيراً، منها ما أورده ابن كثير من أن الشمس كانت تُعبدُ في سبأ "عرب الجنوب" في قصة سليمان من داوود عليه السلام (٢٠١)، وذكر صاعد الأندلس أن حَمِيرَ عبدتها أيضاً، (٢٠٢) وقد ربط على الشوك بين لفظ الأضحية العربية ووقت شروق الشمس (الضحى) (٢٠٣) وهنا إشارة إلى رواسب عبادة الشمس وتقديم القرابين لها عند بزوغها، وقد أكدت المعاجم العربية هذه العلاقة، (٢٠٤) وفي قصة إبراهيم عليه السلام - كأحد الساميين- تقرير لعبادة الشمس في المنطقة، ولم تكن العبادة بشكل تلقائي عفوي، وإنما تجت عن مراحل تطور وتأمل فيقول تعالى: " فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين" (٢٠٥) وقد أثبت المفسرون عبادة الشمس في المنطقة العربية عند تفسيرهم لتلك الآية (٢٠٦) وهكذا يكون قد انكشف لنا بصيص من المعرفة حول دور النار، والشمس في الفكر القديم وارتباطهما بصورة الإنسان خاصة عند المدح والتعظيم فهما رموز لآلهة الخير، وبحثنا في التراث الجاهلي عن الصور التي تتمثل فيها هذه الظاهرة عن استخدام صور النار أو الشمس

(١) البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف بيروت ١٩٧١ ط ٢ ص ٢٢

(٢) طبقات الأمم، صاعد الأندلسي تحقيق حياة العيد بو علوان دار الطليعة بيروت ١٩٨٢ ص ١١٥، ١١٦

(٣) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ١٧٢

(٤) راجع المصباح المنير ص ٣٥٩ "مادة ضحى" والمعجم الوسيط ح ١ ص ٥٣٧، واللسان ح ٤ ص ٢٥٦١

(٥) سورة الأنعام آية "٧٥"

(٦) راجع تفسير الجلالين ٠ لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل شركة

الشمري مصر د ١١٢

الفخر الرازي مفاتيح الغيب للفخر الرازي دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ٨٥ مجلد ٧ ح ١٧ ص ٤٣ وأنوار التنزيل

للبيضاوي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت د ١٨١، والكشاف للزمخشري تحقيق محمد الصادق

قمحاوي مطبعة مصطفى البابي د ٢ ص ٣٠ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير مكتبة دار التراث القاهرة د ٢ ح ٢

ص ٨٥٢ والقرطبي لأبي عبد الله القرطبي- دار الريان للتراث - مصر د ٤ ص ٢٤٦٠

في رسم صورة الإنسان ومدى توظيفها الفني بعد الكشف عن الرواسب والجذور التاريخية في التاريخ الميثويولوجي العربي .

وقد لاحظ الباحث أثناء بحثه تواتر استخدام صورة الشمس في وصف المرأة خاصة دون الرجل وهذا توافق مع ما ذكر من تأنيث الشمس كإله قديم ممثل للأم السماوية وهذه الملاحظة تؤكد العلاقة بين صور الشعر وما كان يعتقد الإنسان قديماً، وقد أشارت بعض الدراسات لذلك وهنا يتأكد الأمر حيث لم تقع يد الباحث تقريباً على بيت يوصف فيه الرجل بالشمس إلا بيت النابغة وهو يمدح النعمان فيقول :

" فإنك شمسٌ والملوك كواكب "

وقد يُعدّ هذا انحرافاً فنياً أو تطوراً لصور الشعر إن صحَّ الافتراض في مراحل وهنت فيها علاقة الشعر بأصوله القديمة .

ومن العبادة القديمة للشمس لدى العرب انبعثت التأثيرات المختلفة : فَسَجَتُْ
الأساطير فكان الأطفال يتقربون إلى الشمس بأسنانهم لتعطيهم أسناناً جميلةً "أسنان
غزال" (٢٠٧) .

وقد أورد النويرى التعبيرات التي يقولونها في هذه العملية (٢٠٨) وقد تناول
الألوسى هذه الظاهرة وعرض بيت الشعر (٢٠٩) .

= القرطبي دار الريان للتراث مصر د٠ت ٤٠ ص ٢٤٦٠

(١) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د٠ جواد على ص ٦١٧

(٢) راجع نهاية الأرب للنويرى ص ٣٠٢

(٣) بلوغ الأرب للألوسى ص ٢٠٨، ٣١٩، ديوان طرفة ص ٥٢

بَرْدًا أْبْيَضَ مَصْقُولَ الْأَثْرِ

بَدَلَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنبَتِهِ

ويقول طرفه: (٢١٠)

أُسِفَ وَلَمْ تَكُدْ عَلَيْهِ بِإِثْمِدِ

سَقَتُهُ إِيَّاهُ الشَّمْسُ الْأَلْثَاثَةُ

وقد ناقش الدكتور الحوفي هذه الظاهرة ، وأشار إلى ترسبها في الشعوب العربية حتى الآن وذكر الأبيان:

كَأَنَّ رِضًا بِهِ صَافِي الْمُدَامِ

وَأَشْتَبَ وَاضِحٍ عَذْبِ النَّيَا

فَلَا حَ كَأَنَّهُ بَرِّقُ الْعَمَامِ (٢١١)

كَسَنَتُهُ الشَّمْسُ لُونًا مِنْ سَنَاهَا

وهذه الأسطورة تشير إلى ما كان للشمس من مكانة في الخيال الشعبي العربي كإله معبود واهب للخير، من هنا كانت المرآة إحدى الصور الخيرة التي تمت بصلة ما لهذا الإله السماوي المقدس " الشمس " .

واقترنت أيضاً صورة الرجل بصورة القمر كأحد صور النار السماوية في الفكر القديم والأب في الثالوث السماوي المقدس والذي سبقت عبادته عبادة الشمس الأم المقدسة عند الساميين الجنوبيين، فبدأ في العربية الجنوبية إلهها هاديا للناس مهدئاً للأعصاب وسميراً لرجال القوافل من التجار وأصحاب الأعمال في الليالي اللطيفة القمرية بعد حر شديد تبعته

(٤) راجع ديوان طرفه دار صادر بيروت د.ت ص ٢٢، ٧٦٥

(٥) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. أحمد محمد الحوفي مكتبة نهضة مصر للطبع والنشر مصر ١٩٦٥ ص ٤٢١

الشمس المحرقة^(٢١٢) ويشير بركلمان إلى أن الرب القديم للكعبة هو الإله القمري "هَبِل" (٢١٣).

ومن أسماء إله القمر عند عرب الجنوب : "ود" عند المعينيين و"المقه" عند البئيين و"عم" عند قتبان، "وسين" في حضرموت ، كما في بابل (٢١٤) وذكر ابن خلدون أن عاداً كان كافراً يعبد القمر وأنه كان على عهد نوح، (٢١٥) وقد عرض ابن الجوزي لعبادة القمر، وقد ضمنها تلبيسات إبليس (٢١٦) وقد اتخذ الصابئة له صنماً كأحد الكواكب السبعة التي كانوا يعبدونها (٢١٧)

ولم تنته رؤية العرب للقمر عند العبادة ووضع الأصنام والتماثيل له ، بل تسرب إلى الخيال الشعبي والأساطير، ومنها ما أورده السيوطي (٢١٨) في كتابة المزهر، من الحوار مع القمر بشكل خيالي تبدو فيه مكانة القمر في الخيال العربي، (٧) وذكر النويري أن قوماً من العرب اعتقدوا أن من ولد له ولد في القمراء تقلصت عُمرته فكان كالمختون. (٢١٩)

(

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي ج١ ص ٦٥، ٥١، ٥٢

(٢) نفسه ج١ ص ٢٥٢، ٢٥٣ وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير

البعليكي، دار العلم للملايين - بيروت ط ١١ سنة ١٩٨٨ ص ٢٦

(٣) الحضارات السامية القديمة سبتيوموسكاتي ص ١٩٤

(٤) تاريخ العلامة ابن خلدون ٠ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٦ ج٢ ص ٣٨

(٥) راجع تلبيس إبليس لابن الجوزي مكتبة المتنبّي مصر د٠ ت ص ٥٢ : ٦٢

(٦) في طريق المثلولوجيا عند العرب محمود سليم الحوت ص ٨٢ : ٧٩

(٧) المزهر في علوم اللغة للسيوطي دار إحياء الكتب العربية مصر د٠ ت ج٢ ص ٥٢٧

(٨) نهاية الأرب للنويري ج٣ ص ١٢٢ .

وأعتقدُ أن هذه العلاقة موجودة حتى الآن بين عملية الختان والقمر في ريف بعض البلاد العربية، فهم يحافظون على أن يكون الختان قبل نهاية الشهر القمري حتى إذا هلَّ الهلال خرج المختون، مطمئناً لشفائه.

وللقمر علاقة بالذكورية، فهو إله ذكر لذا ارتبط غالباً بصورة الرجل والثور، وكثيراً ما وردت صورة الرجل في الشعر الجاهلي موصوفاً بصورة القمر، وقد سأل ابن الكلبي مالك بن حارثة قائلاً: صف لي "ودا" حتى كأني أنظر إليه قال: "كأنه تمثال رجل كأعظم ما يكون الرجال قد ذبر عليه حلتان" وقد وافقه الفخر الرازي في أن "ودا" صنم لقوم نوح وكان لقريش، وبه سُمى عمرو بن عبدود وذلك في تفسير سورة نوح (٢٢٠)

وقد أشار الدكتور عبد الحميد يونس، إلى تذكير القمر وتأييد الشمس وتباين رمزيهما في المأثورات الشعبية (٢٢١) وكانت رموز القمر الأرضية مذكرة في كثير من الدراسات والمصادر فعده د. على البطل الثور الوحشي الذي عبد في الجزيرة ورفع باسم "ود" رمزاً للقمر (٢٢٢) وقد أشار الألوسي إلى اتخاذ العرب صنماً للثور قائلاً: "ومن شريعة عبادتهم أنهم اتخذوا صنماً على شكل عجل وبيد الصنم جوهرة، يسجدون له ويعبدونه ويصومون له أياماً معلومة من كل شهر ١٠٠ إله" (٢٢٣) ويقول دتيلف نيلسون: "وليس

-
- (١) الأصنام لابن الكلبي تحقيق د. أحمد كمال زكي، الدار القومية للطباعة والنشر مصر ١٩٦٥ ص ٥٦
 - (٢) مفاتيح الغيب الفخر الرازي مجلد ١٥ ح ٣ ص ١٤٤
 - (٣) راجع معجم الفلكلور د. عبد الحميد يونس مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٣ باب "القاف" ص ١٧٧
 - (٤) الصورة في الشعر العربي د. على البطل ص ٨
 - (٥) بلوغ الأرب، للألوسي ح ٢ ص ٢١٦.

عبثاً أن نرى في اللغة العربية تعبير النيران للشمس والقمر، ويتخذ القمر أسماء إلهية متحركة في جزيرة العرب فهو "رخ - وسين - وشهر- وعم - والمقه - وود - واللات - والسيد" وقد اتخذ العرب الجنوبيون من الثور رمزاً "لإلههم القمر فعدَّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة، وقد

دعي القمر في بعض النصوص ثوراً (٢٢٤) وتظهر العلاقة بين القمر وبعل الذي يطلق عليه في اليمنية الجنوبية "الرب" حيث تتوحد الكلمات في المعنى اللغوي، فالثور هو "السيد والملك والرب" (٢٢٥) .

مع ملاحظة ما أورده ديتلف نيلسون أنفاً أن "السيد" من أسماء القمر في جزيرة العرب، وهذه علاقة ليست عاديةً وقد ترتب عليها كثير من المعتقدات التي انعكست في الممارسات الأسطورية لعمليات الاستمطار وانعكست أيضاً على الفن؛ فكان القمر دائماً رمزاً محموداً للرجل متكامل الرجولة فوصف به الرجل الممدوح في شعر الجاهلين .

وينبغي الوقوف ببحث متأن أمام هذه الصور حتى نتمكن من وضع أيدينا على الجذور الأسطورية والدينية لصور الشعر القديم لفك كثير من مضامين الظواهر الفنية في هذا التراث .

وقد لاحظ الباحث أثناء مروره على مدونات الشعر الجاهلي ، أن صورة القمر غالباً ما استخدمت لوصف الرجل خاصة، وهذا تطابق عجيب بين استخدامات الشعراء الجاهلين، والتراث الديني الضارب في القدم، وقد أشارت لذلك بعض الدراسات، وتتأكد

(١) التاريخ العربي القديم ديتلف نيلسون . ترجمة فؤاد حسنين مكتبة النهضة مصر ١٩٥٨ ص ٢٠٧

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة "بعل" ١٤ ص ٣١٥ : ٣١٧

وراجع المصباح المنير ص ٥٥، ٥٦، وراجع النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٤ ص ١٤١ .

هنا هذه الفكرة فلم تقع يد الباحث بعد تعمد الإحصاء على وصف للنساء بالقمر إلا على بيت لأبي الأسود بن يعفر النهشلي يصف فيه النساء قائلاً:

والبيضُ تمشى كالبدورِ وكالدُمى

ونواعمُ يمشينَ بالأفرادِ (٢٢٦)

وهذا البيت إذا قورن بما ورد بوصف الرجل بالقمر لا يعد إلا انحرافاً فنياً عن مسار الشعر الجاهلي وتقاليد المرتبطة بالتراث الأسطوري القديم .

اتصال العرب بالشعوب الأخرى

كمصدر ثقافي أسطوري

وعلى الرغم من إيماننا بفكرة اللاشعور الجمعي كما شرحها يونج، إلا أننا نعزّد هذه الفكرة بآراء المؤرخين، ومؤلفي دوائر المعارف حول اتصال العرب بالحضارات المجاورة لهم ليصبح احتمال التأثير والتأثر في مجال أساطيرهم حول تفسير العالم وظواهره – والنار من هذه الظواهر – أكثر قبولاً وتأكيداً .

فعن علاقة العرب مع المصريين القدماء يقول البلاذري: " إنَّ من القبائل العائدة التي أقامت شمالاً من توغلوها في مصر زمن الفراعنة أسسوا دولةً هناك " (٢٢٧) ويشير فيليب حتّى، إلى تأثر الجزيرة العربية بثقافة وادي النيل والرافدين (٢٢٨) ويذكر صاعد

(٣) المفضليات ص ٢٦٨ .

(١) أنساب الأشراف للبلاذري نقلا عن الشعر الجاهلي تفسيراً أسطورياً ص ٨٢

(٢) تاريخ العرب د. فيليب حتّى دار الكشاف بيروت ١٩٥٨ ج ١ ص ٣٨: ٦٠

الأندلسي عن العماليق ساكني الجزيرة أنهم أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب (٢٢٩) .

ويؤكد الدكتور أحمد كمال زكى ، هذه العلاقة قائلاً إن عناصر من عرب الجزيرة أسهمت في بناء حضارة نقادة الأولى جنوبي أسيوط وذلك قبل قيام حكم الأسرة الأولى بمصر ٣٨٥ ق م ٢٣٠

ومع الهنود كأصحاب أقدم حضارة من أقدم حضارات العالم لم يحرم العرب من الاتصال بهم فقد تاجروا مع الهنود ٢٣١ بل نافسوا البابليين في الاتجار مع الهنود ٢٣٢ وقد ورد في كتب الخمر والمعجم التاريخية واللغوية إشارات لهذه العلاقة – بين العرب والهنود – من قديم .

فيربط الألوسى بين خشب المندل المستخدم في نار القرى إلى بلد بالهند تسمى " مندل " ٢٣٣

وياقوت الحموي يذكر أن البصرة كان من أسمائها أرض الهند (٢٣٤) وقد ربط بعض الباحثين المحدثين بين تسمية السيف بالهندي والمهند والهنداوى ببلاد الهند واستدل بذلك على تلك العلاقة بين العرب والهنود .

(٣) طبقات الأمم صاعد الأندلسي، تحقيق حياة العيد بوعنوان دار الطليعة بيروت د٠ت ص ١١٧ : ١١٨

(٤) الأساطير د٠ أحمد كمال زكى دار العودة بيروت ١٩٧٩ ص ١٠ نتخت

(٥) - Ency -of Islam vol "3" p "237" , "245" Lei den London 1936

٦- حضارة العرب جوستاف لوبون ١١٩ : ١٢٠ نقلا الحياة العربية من الشعر الجاهلي للحوفى ص ٩١ وراجع تاريخ العرب فيليب حتى ١ ص ٦٣ .

٧- بلوغ الأرب للالوسى ١ ص ٧ ، ٢ ص ١٦١

(١) معجم البلدان ياقوت الحموي مادة "بصر" دار صادر بيروت د٠ت ص ٣٢٤

وإذا تركنا الهنود وتوجهنا إلى الفرس نجد علاقتهم بالعرب أكثر تميزاً عن غيرها، إذ تتسم بتعدد جوانبها جغرافياً وتجارياً وثقافياً ودينياً وعسكرياً، فلا يُجهل مجاورة الفرس للعرب من ناحية العراق والتقاؤهم بهم في تجارتهم، ويذكر ابن هشام أصحاب الإيلاف وهم هشام ونوفل (٢٣٥) ومن الناحية العسكرية وطى شعربن مرعش أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وبنى مدينة سمرقند "سمرخرب" (٢٣٦) سمرقند، وقد سيطر الفرس على بلاد العرب الجنوبية والتحموا مع العرب مباشرة (٢٣٧) وعليه ترتبت آثار متنوعة، فهناك بعض الأسماء في العربية من الأصل الإيراني والفارسي (٢٣٨) وقد أنشأ العرب مدناً متاخمة - لفارس مما جلب كثيراً من الفرس للعرب والعكس (٢٣٩) ومما أثار في أدب العرب بشكل قومي، كمدح العرب وهجاء الفرس (٢٤٠) وأيضاً قد انتقل من الفرس إلى العرب عقائد منها المجوسية والمزدكية (٢٤١) كما استعان الفرس بكهان العرب (٢٤٢).

(٢) سيرة ابن هشام - عبد الملك بن هشام تحقيق السقا والأبياري مطبعة الحلبي ١٩٥٥ حـ ١

ص ٤٧ وانظر المحبر لحبيب سعيد ص ٤٢، ١٦٣، ٢٦٣، ٢٨٦

(٣) تاريخ العلامة ابن خلدون العربي حـ ٢ ص ٩٧

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ص ١٦، ١٧

(٥) تاريخ الأدب العربي بلاشير ترجمة إبراهيم الكيلاني دار الفكر بيروت د ٦٢، ٦٣

(٦) فجر الإسلام د أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٢: ٢٩، ٨٩: ٩٠

(٧) تاريخ الكامل لابن الأثير المطبعة الأزهرية ١٣٠١ هـ حـ ١ ص ٢١٥

(٨) بلوغ الأرب للألوسي حـ ٢ ص ٢٣٣، ٢٣٤

وراجع الإسلام والحضارة، محمد كرد على، ص ١١٧: ١١٨ دار الكتب المصرية مصر ١٩١٤

(٩) تاريخ الكامل لابن الأثير حـ ١ ص ٢٢: ٢٣

وأما الساميون وهم أصل العرب وأجدادهم ، فيذكر ابن خلدون أن العرب سكنوا بابل قبل الجزيرة وتركوها عندما داهمهم بنو حام (٢٤٣) وذكر البعض عن صلة العرب بالكلدانيين والأشوريين والعبرانيين والحبش، (٢٤٤) وأرجع البعض تمدن بابل وأشور إلى اتصالهم بعرب الجزيرة المعروفين بسكان عربة (٢٤٥) وكان من آثار ذلك على اللغة العربية أن ستة وعشرين لفظاً في القرآن الكريم أصلها حبشي أكثرها يرجع إلى أمور دينية مثل : الحواريين ومنافق، ومحراب ومنير. ٠٠ الخ " (٢٤٦) وظهر هذا التأثير على المستوى الأدبي بدخول شعر المجون والهجاء، وقد مثل ابن سلام لذلك بالشاعر " سحيم" الذي اشتراه عبد الله بن عباس لعثمان بن عفان رضي الله عنهم، (٢٤٧) وعموماً فالساميون وحدة واحدة وقد حافظ العرب بالذات دون غيرهم على التراث السامي القديم (٢٤٨) .

واليهود كشعب سامي قد تأثر بالديانة السامية (٢٤٩) وأيضاً أثروا في العرب حيث التواجد التاريخي لهم على خريطة بلاد العرب كان له مردوده على الخريطة الفكرية لساكني هذه الجزيرة وذلك من منطلق التأثير والتأثر وصلة اليهود بالعرب وقد أشار إليها الدكتور جواد على، (٢٥٠) وقد دلت بروكلمان على هجرة اليهود إلى شمال الحجاز من

(١) راجع تاريخ العلامة ابن خلدون ج٢ ص ٣٤

(٢) تاريخ العرب القدامى محمد فخر الدين المعنى مكتبة الطلبة القاهرة ١٩٣٣ ص ١١٢

(٣) العرب واليهود في التاريخ د. أحمد سوسة دار الحرية للطباعة مصر ١٩٧٢ ص ١١١، ١٤١

وراجع القاموس المحيط مادة "عرب"

(٤) الإتيان في علوم القرآن جلال السيوطي ، المكتبة الثقافية بيروت ج١ ص ١٣٧

(٥) طبقات فحول الشعراء ابن سلام الجمحي شرح محمد محمود شاکر ص ٧١

(٦) الحضارات السامية القديمة سبتيوموسكاتي ص ٥٠، ٥٧، ٢٢٤

(٧) راجع قصة الحضارة وول ديورانت ترجمة محمد بدران

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٧١ مصر " الشرق الأدنى القديم " ج٢ ص ٣١٩

(٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد على ج٢ ص ١١، ٥١١

فلسطين واستعراجهم، بغناء بدو شبه جزيرة سيناء وهم يسقون عند البئر بأغانٍ تشبه نشيد البئر عند الإسرائيليين (٢٥١)

ويشير في موضع آخر إلى أن اليهود حملوا نَفراً من العرب على اعتناق دينهم وأفكارهم (٢٥٢) وقد استدل الدكتور إبراهيم عبدالرحمن على تركيبة العرب العقائدية المتعددة باتصالهم باليهود (٢٥٣) وكان لذلك آثاره الفكرية والأدبية والدينية؛ مما حمل صاحب تفسير المنار إلى الحديث عن هذه الصلة عند مناقشة بعض التفسيرات على أنها من الإسرائيليات وأن اليهود امتدت أفكارهم وخرافاتهم في بيئة العرب حتى إلى المسلمين في كتبهم (٢٥٤) .

إن نستطيع أن نربط بين ما اعتقده العرب ومارسوه تجاه ظاهرة النار، وعقائد الشعوب الواردة وممارساتهم حيث هذا الاتصال المباشر مع هذه الثقافات، فالشعوب يُؤثر بعضها في بعض، فلا يستبعد تأثير العرب بشعوب العالم الخارجي، ولا أدرى كيف يتهمون بعد ذلك بالتخلف والعزلة والفرغ الثقافي والديني؟! (٢٥٥)

(٩) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف مصر ١٩٨٨

١٢١ ص ١٢١

(١) العرب والإمبراطورية العربية كارل بروكلمان ص ٢٩

(٢) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص ٢٥، ٦١

(٣) تفسير المنار محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت د. ت ٤٤

ص ٦١، ٦٨

(٤) راجع في ذلك: فجر الإسلام د. أحمد أمين ص ٣٣، ٣٥، في نقله الرأي "أولبرى" وهجومه على العرب إثناء دفاع

د. أحمد أمين عن العرب

أنثروبولوجيا الشعر الجاهلي

والعرب بعد عرض اتصالاتهم بالعالم واشتراكهم مع غيرهم من البشر في كثير من الأفكار والمعتقدات وبخاصة موضوع النار، لا يمكن إنكار ما كان لهم من ثقافة وفكر وأساطير، رغم ما وجه إليهم من اتهامات وخصوصاً في مرحلة ما قبل الإسلام "الجاهلية" كالبداءة والسذاجة والمادية وضيق الخيال وضعف الفكر، وعدم القدرة على مواكبة الأجناس الأخرى في فنونهم (٢٥٦)

ومن العجيب أن أكثر هذه الهجمات وأشدّها ضراوة كان مصدرها بعض المسلمين؛ حمية منهم على الإسلام ظناً بأن ذم المرحلة السابقة إنما هو مدح للإسلام، وهذا مألوف بين كثير من الأمم والأديان وقد ذكر الدكتور على البطل وصف المسيحيين للمرحلة السابقة للمسيح بالجاهلية، (٢٥٧) ويبدو أن هذا على الإسلام وليس له، والإسلام في حد ذاته دليل على استعداد العرب وقدرتهم على استيعاب فكرة الدين الجديد وتقبله، وعلى قدر عظمة الإسلام كانت عظمة العقليات التي أدركت جوانب هذه العظمة فاتبعوه أو عارضوه، فجادلوه، وقد وصفهم القرآن بأنهم قوم "جدلون" (٢٥٨)، وهذا المستوى اللغوي والبلاغي للقرآن يثبت أنه من غير المعقول أن يُنزل على قوم غير مؤهلين لغوياً وأدبياً ولا بد أن يكونوا

(٥) راجع فجر الإسلام أحمد أمين ص ٣٧: ٣٥، مقال الدكتور يوسف خليف مجلة المجلة عدد ٩٨ ص ١٠٤ سنة ١٩٦٥، مقال تشارلز ليال تعريب الدكتور عبد الله أحمد المهنا مجلة الشعر يوليو ١٩٧٨، وراجع تعليق الدكتور مصطفى ناصف في قراءة ثانية لشعرنا، دار الأندلس بيروت د.ت ص ٧، ٤٩.

(١) راجع الصورة في الشعر العربي د. على البطل ص ١٣

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٤٨: ٥٠.

مهيئين، وإلا فكيف تفسر هذه الذقلة الحضارية الكبيرة التي نقلها لهم الإسلام إلا إذا آمنا أنهم كان لهم رصيد ثقافي وحضارى؟

وكذلك نجاحهم في إقامة نموذج حضارى كان له تميزه وسموه، وقد حاول البعض معارضة التسمية المنعوت بها هذا العصر "الجاهلية" وتحديدها بجاهلية الدين أو السلوك التي تضاد الحلم^(٢٥٩) وكيف يوصف عصر نال من النفوس العرب والمختصين منهم بالأدب واللغة خاصة - كل احترام وتقدير لدرجة أن هُوُوا من قيمة الشاعر لمجرد ولادته بعد هذا العصر "أي بعد ظهور الإسلام"؟^(٢٦٠)

ينبغي أن ننظر لهذا الأمر بموضوعية علمية وبحياد تاريخي، فالعرب شعب ككل الشعوب له ميزاته وفيه عيوبه، وكما يقول الدكتور أحمد أمين خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه، ككل أمة أخرى^(٢٦١) وكثير من المراجع التاريخية تشير إلى معرفة العرب للكتابة في شمال الجزيرة^(٢٦٢)

(٣) راجع مناقشة الدكتور على الجندي في تاريخ الأدب العربي دار المعارف مصر د٠ت ص٩: ١٢، مصطفى عبد الشافي الشورى الشعر الجاهلي تفسيراً أسطورياً دار المعارف مصر ١٣٨٦هـ ص١٨

(٤) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ح ١ ص ٣٦

(٥) فجر الإسلام د٠ أحمد أمين ص ٣٤

(٦) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ح ٣ ص ٣٦

وامتلاكهم لأساطير ومعارف روحية وحكايات خرافية (٢٦٣) هذه المعرفة شكلت ثقافة عربية لها طابع إخباري يختلف عن غيره من الثقافات العالمية ساعدتهم على المحافظة على هويتهم رغم اختلاطهم بالأمم الأخرى كما ذكر الباحث أنفا .

وقد استدل أكثر المفسرين العرب عند تفسيرهم الآية " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون " (٢٦٤) بأن كلمة أمة في الآية سنة أو ملة ودين أو الطريقة والقصد، وقال بعضهم مذهب (٢٦٥) وهذه الآية وآراء المفسرين فيها يدلان على تشبث العرب بما كانوا يرتثون من معارف وثقافات تأصلت في نفوسهم عن آباءهم رغم آثار غيرهم الثقافية عليهم ، وأشار كثيرون إلى آثار اليهود والمسيحيين والمجوس الزنادقة وتداخلهم مع العرب حتى دان كثير من العرب بهذه الديانات (٢٦٦) .

ولم تقتصر معارف العرب عند الثقافة الدينية والعلمية فحسب، بل تمتزج مخلفاتهم الثقافية بالأساطير التي ورثوها من عصور سحيقة وقد سجلت المخريشات والنقوش في المعابد القديمة ما ينم عن حياة خصبة استقطبت أساطيرهم وحكاياتهم الخرافية (٢٦٧)

-
- (١) راجع الصورة في الشعر العربي ص ٣١، وراجع الحكاية الخرافية ديرلاين ص ٣٩ والأساطير د. أحمد كمال زكى ص ٢٠، ٢٣
 - (٢) راجع تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ص ١٤، ٤٢، والحياة العربية للحوفى ص ١٦٢ وراجع الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية د. بهي الدين زيان دار المعارف مصر ١٩٨٢، ص ٦٣
 - (٣) سورة الشورى آية "٢٣"
 - (٤) انظر تفسير القرطبي ج ٩ ص ٥٨٩٤، ٥٨٩٥، والجلالين ص ٤٦٢، تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢٦، والفخر الرازي ج ٢٤ ص ١٤، تفسير الطبري ج ٢٥ مجلد ٢٥، ص ٣٧، ٣٨، والبيضاوي ص ٦٤٩، الكشف للزمخشري ج ٣ ص ٤٨٤
 - (٥) الحضارات السامية القديمة سبتيو موسكاني ص ٢٠٥ وراجع في الأدب الجاهلي د. طه حسين ص ٧٤، ٧٥ والوسطية العربية د. عبد الحميد إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٧٩ ص ٦٨
 - (٦) الشعر الجاهلي تفسيرا " أسطوريا " د. مصطفى الشورى ص ٨٥ وراجع العرب في أحقاب التاريخ أمين مدني دار المعارف مصر د. ت ص ١٥٤

وقد أرجع البعض هذه الثقافة إلى اللاوعي الجمعي الذي لا يقف بالعرب عند المرحلة الوثنية بل يمتد بهم إلى مرحلة أكثر إغالا وأقدم وجودا (٢٦٨) وهذا التراث كان يظهر مندفعاً منهم إلى السطح بحيث يمكن أن يشاهد ويقرأ (٢٦٩) ولاشك في ظهوره في نتاجهم الشعري دون وعى منهم •

والعرب عند مواجهتهم للإسلام ومعارضتهم له ونسبوه إلى الأساطير تهمة منهم له بأنه من الحكايات الخرافية التي تركها الأقدمون تملئ على الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم - : " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا" (٢٧٠)

ولو طفنا بكتب تفسير القرآن نلاحظ حديثهم عن الأسطورة أو الأسطار التي هي مفرد الأساطير وهي الأكاذيب وما سطره الأولون وأشار الفخر الرازي بأنها كأحاديث رستم واستنديار، وقال ابن كثير كتب الأوائل (٢٧١) وأيضا ذهب المفسرون نفس المذهب في تفسير الآية " إذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين" (٢٧٢)

(٧) المنهج الاسطوري في تفسير الشعر الجاهلي د. عبد الفتاح محمد أحمد ص ١٥٥

(٨) الأساطير د. أحمد كمال زكي ص ٢٦٣ •

(١) سورة الفرقان آية ٥

(٢) راجع تفسير الجلالين ص ٣٠٠

والكشاف ج ٣ ص ٨٢، والبيضاوي ص ٤٧٦، والقرطبي ج ٣ ص ٩٧٢، الطبري ج ١٧

مجلد ٩ ص ١٣٧، ص ١٣٨ والفخر الرازي ج ٤ ص ٢٤٢ مجلد ١٢ ص ٥٠، وابن كثير ج ٣ ص ٣٠٩

(٣) سورة الأنفال "٣١" وراجع التفاسير سابقة الذكر حول هذه الآية

وقد اعترض د. مصطفى الشورى على من أنكر معرفة العرب للأساطير (٢٧٣)
والشعر الجاهلي كديوان لمعارف العرب وأساطيرهم لا بد أن يناله شئ من آثار الاتصال
بغير العرب وأن يعكس ثقافات العرب أنفسهم من تراث ديني وفكرة وأسطوري وقد أشار
البعث إلى أن ألفاظاً أجنبية مثلت حضارتها وأشارت إلى علاقة العرب بهذه الحضارات
بدلالات مختلفة منها المحدودة ومنها الدلالات الواسعة، وقد تعدى هذا التأثير من الألفاظ
إلى صورة البيان الشعري وخاصة في مجال التشبيه (٢٧٤) مما كان له دلالة صريحة على
تأثير الشعر الجاهلي بحضارات غير العرب المجاورين لهم، والشعر الجاهلي ديوان علوم
العرب فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : : كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه "
(٢٧٥)

ويقول السيوطي عن عمرو بن العلاء عن يونس بن حبيب - مشيراً إلى حجم تراث
الجاهليين " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر
كثير" (٢٧٦)

والشعر الجاهلي لا نستطيع أن نجزم بأنه كان تعبيراً ذاتياً محضاً، فالقصيدة خبرة
شعرية لإنسان عاش عصراً ما، بعد أن عاش قبله آلاف الأجيال فاكتسب من تجاربهم
ودرس كثيراً من أفكارهم (٢٧٧)

(٤) راجع الشعر الجاهلي تفسيراً أسطورياً ص ٨٦

(٥) راجع الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه وفنونه د. بهي الدين زيان ص ٦٦، ٦٧

(٦) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي شرح محمود محمد شاكر

مطبعة المدني مصر د. ت ١ ص ٢٤، ٢٥

(١) المزهر في علوم اللغة السيوطي دار إحياء الكتب العربية القاهرة د. ت ١ ص ٤٧٤

(٢) شعرنا القديم رؤية عصرية د. أحمد سويلم الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٧ ص ٢

وقد تفانى الشاعر الجاهلي في قصيدته فعبر عن ذاته داخل قبيلته وامتزجت عواطفه الخاصة بأمور قبيلته العامة من حرب وسلم، وحلّ وترحال، وقد تطور هذا الشعر مع عجلة التاريخ والمجتمع، وقد حدد د. إبراهيم عبد الرحمن بدايتها بامرئ القيس إلى زهير كأبي ظاهرة فكرية في أي مجتمع (٢٧٨) وعده سبتي نوموسكاني أنه نتيجة لفترة طويلة من التكوين والتطور وهو ليس شعرا المرحلة الأولى للتطور الأدبي (٢٧٩)

والمعتقدات الدينية والأسطورية كجزء من حياة العرب الجاهليين كان ضروريا أن تكون من روافد المضامين الأدبية في الشعر الجاهلي، وتشير المصادر التاريخية إلى غلبة الدين على سائر جوانب الحياة وهذا يتماشى مع الفلسفة التاريخية التي تفسر العالم على أنه نظام واحد يدور حول الربوبية، فتاريخ الساميين - والعرب جزء منهم - وأدبهم وفنهم كل ذلك مدين للدين في الأصل والمحتوى (٢٨٠).

وتشير الدراسات إلى أن كافة الفنون الإنسانية نشأت في حجر الممارسات الشعائرية للفكر الديني (٢٨١)

(٣) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية د. إبراهيم عبد الرحمن ص ٥٤، ٥٥

(٤) المرجع السابق ٢٢٧: ٣٢٨

(٥) الحضارات السامية القديمة سبتي نوموسكاني ص ٢٠٩

(٦) راجع الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري د. علي البطل ص ١٨

راجع بحث في علم الجمال - جان برتليمي ترجمة د. أنور عبد العزيز ص ٥٧٣

ويقول فريدرش ديرلاين إن المعتقدات الأسطورية هي المضمون الوحيد لأقدم صور التأليف الأدبي (٢٨٢) وقد أشارت الدراسات الأسطورية الحديثة إلى الصلة القائمة بين الشعر الجاهلي والممارسات الدينية الموغلة في القدم وأنَّ الشعرَ الجاهلي احتفظ بها رغم ما اعتورها من تشويه ونقص وإن لم تظهر فيه هذه الممارسات إلا أنه تأثر بنماذج فنية سابقة عليه كانت أكثر اتصالاً وتعبيراً عن الطقوس منه (٢٨٣)

وقد حاول بركلمان تحديد بداية هذه التأثيرات - "التأثيرات الأسطورية" - بأوائل شعر الهجاء كما أشار جولد زيهر، بالأغاني الصغيرة (٢٨٤) وإن كان هذا الكلام يشوبه الشك لصعوبة إثبات هذه الافتراضات التاريخية، ولغياب الأدلة العلمية والاكتشافات الأثرية نستطيع أن نقول: إن الشعراء الجاهلين كانوا على درجة من المهارة في التوظيف الفني لهذه الأساطير في صورهم الشعرية بشكل يفصل بين هذه الصور وأصولها الأسطورية لدى القارئ العادي (٢٨٥).

وقد أشارت بعض الدراسات إلى ضعف واضمحلال هذه الممارسات السحرية والدينية في المجتمع الجاهلي في القرن السابق لمجئ الإسلام، وذلك لضعف أثر الأوثان والأساطير حولها وتذبذب اليهودية والنصرانية وتقهرها في أرض العرب (٢٨٦) لذا يشير

(١) الحكاية الخرافية فريد ريش ديرلاين د. نبيلة إبراهيم ص ٢٩

(٢) راجع الصورة في الشعر العربي د. علي البطل ص ١٤، ٧٤، ٩٧

وأيضاً رمز الماء في الأدب الجاهلي د. ثناء أنس الوجود مكتبة الشباب مصر د. ص ٩٦

(٣) تاريخ الأدب العربي كارل بركلمان ح ١ ص ٤٥، ٤٦

(٤) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية د. إبراهيم عبد الرحمن ص ٧١

(٥) تاريخ الأدب العربي كارل بركلمان ح ٣ ص ٥٥، ٥٦

وراجع العرب والإمبراطورية العربية لبرولكلمان ص ٣٧٧ نقلاً عن الحياة العربية من

الشعر الجاهلي وأيضاً الصورة في الشعر العربي د. علي البطل ص ٢٧، ١٤٧ .

د. أحمد زكى إلى أن التفسير الأسطوري للأدب والشعر بخاصة ، ما يزال فيه جوانب كثيرة لم يكشف عنها، وأشار إلى ضرورة المنهج الأسطوري وأهمية ما قدمه الرواد من شعراء ونقاد وأنتروبولوجيين بشكل يوحى بأن للأسطورة اليوم دورا قد يغلب أنواع التقويم الأدبي رأسا على عقب (٢٨٧).

لذا يصبح من الضروري الربط بين الشعر الجاهلي ومعتقدات الجاهلين وأساطيرهم حتى نستطيع إزالة ما رُمى به من مادية ومباشرة ونمطية ٠٠٠٠ الخ" هذا من ناحية الأدب، والعكس صحيح؛ فالعلاقة جدلية بين المعتقد الديني للإنسان، وأي فن من فنونه فالفن يفسر المعتقد والمعتقد يفسر الفن وإلا سيظل كثير من الغموض والتفسير الخاطئ مسيطرين على الرؤية العربية لشعر أجدادنا - رغم تراثه - إذا حُلنا بينه وبين أصوله الميثولوجية، وأظن أن عقلية القرنين الثاني والثالث الهجريين قد اعتلت بنفس الداء، وهو الفصل بين الشعر والأصول الميثولوجية له وقد اتهمت هذه العقليات ببت هذه الآثار الوثنية من الشعر الجاهلي وبقاياها عن عمد (٢٨٨).

وأغلب الظن أنهم لم يفعلوا عن عمد، بل عن قصور في الرؤية الأسطورية التي لم تكن قد اتضحت بالشكل المعاصر، وهذه حدود إمكاناتهم التفسيرية للنص الجاهلي، ولو أسعفهم العلم أو امتد بهم العمر حتى ظهرت هذه المفاهيم الحديثة والمدارس الميثولوجية والأنتروبولوجية،، والمكتشفات الأثرية، وتجارب النقد العربية لأدبها القديمة بالمنهج الأسطوري، لكان الأمر غير ذلك، وإذا كان القرآن قد تحدث صراحة عن بعل، وسواع،

(٦) مجلة فصول ١ أبريل ١٩٨١ " التفسير الأسطوري للشعر القديم" للدكتور أحمد كمال زكى

١- انظر بين القديم والجديد " دراسات في الأدب والنقد" د. إبراهيم عبد الرحمن محمد مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٧

ويغوث،، ويعوق، ونسر، والملات، والعزى ومناة، وغيرها بل وصف عبادتهم للشمس في سبأ، ونهاهم عن ذلك بشكل تفصيلي لا يحتمل الستر أو التأويل، فكيف يقوم هؤلاء بهذه المحاولة التي ليس لها علة مقنعة لديهم في نص معروف أنه من تراث قوم غير مسلمين، وهذه الوثنيات موجودة صراحة والحديث عنها في كتاب يتعبدون بتلاتوته؟! إذن كان غياب معالم هذه الدراسة وعدم وضوحها لديهم هو سبب قصور رؤية السلف لهذا الشعور ولو اتضحت لهم هذه المعالم لقالوا غير ما ورت عنهم .

الطبيعة العربية مصدراً ميثولوجياً

وإذا كان للفكر والمعتقد أثر على الفنون، فللطبيعة أثر لا يهمل حيث إن الفنان أداة تعبير تعكس صورة ذاته متأثراً بما حوله من مؤثرات اجتماعية وفكرية، وطبيعية، والطبيعة العربية كان لها نصيب في التأثير على الأدب العربي عموماً والشعر الجاهلي بشكل خاص، حيث حرارة الجو وقلّة المطر وندرة النبات كان له دور في تشكيل نفسية العربي وعاداته وعلاقاته وممارساته مع غيره، إذن للطبيعة سلطان على حياة العرب بصفة عامة وعلى الأدب بصفة خاصة.

وقد تميزت هذه الطبيعة بالحرارة الرهيبة (٢٨٩) التي تجعل الهواء حروراً ينحف الأجسام ويجفف الأدمغة (٢٩٠) ويسود الجفاف شبه الجزيرة بوجه عام (٢٩١) وقد أشار معجم البلدان إلى أن سبب تسمية تهامة بهذا الاسم هو شدة حرها وركود الرياح وقيل تُهَم الحر إذا اشتد. (٢٩٢)

(١) الصحراء الكبرى جورج غرستر ترجمة خيرى حماد، المكتب التجاري بيروت ص ١٤٦ ١٩٦١

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي دار الفكر بيروت ١٩٧٧ ط ٥ ح ٢ ص ٦١

(٣) مقدمة القصيدة الجاهلية في الشعر الجاهلي د. حسين عطوان دار المعارف مصر ١٩٧٠

ص ٣٠ وراجع تاريخ العرب القدامى محمد فخر الدين مكتبة الطليعة لخريجي المدارس

العليا مصر ١٩٣٣ ص ٦٥ .

والزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره د. صلاح عبد الحافظ دار المعارف بمصر د. ت

ص ٤ ، وأيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي ، منذر الجبورى دار الشؤون الثقافية

بغداد ١٩٨٦ ص ٤٣ ، ٤٤

والإسلام والحضارة محمد كرد على ، دار الكتب مصر ١٩٣٤ ص ١٢٨

تاريخ العرب قبل الإسلام د. السيد عبد العزيز سالم مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية

د. ت ٧٥

(٤) معجم البلدان ، ياقوت الحموي دار صادر بيروت د. ت ح ٢ ص ٦٤

وراجع مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي د. حسين عطوان ص ٣٠

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ص ١٤

وهذه الطبيعة كانت تفرض على الإنسان العربي القحط والشقاء (٢٩٣) بل أجبرته على نمط معين من حياة التنقل والترحال ولا تجود إلا بعد عناء ومشقة وربما لا تجود إلا بالهزيل الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع .

ورغم ما تكلف الطبيعة العربية سكانها من مشاق إلا أن العربي كان شديد بوطنه وبيئته الصحراوية (٢٩٤) فإذا حل الجذب لجأ العرب إلى الحضريتزودون منه ثم يؤوبون إلى صحرائهم ولا يزال ذلك دأبهم التشبث يأخذون من خيرات الحضريوتشبتون بالبادية . (٢٩٥) إن حياة البدوي وسط الطبيعة والتقاء بها مباشرة جعله يعايشها ويتعبد لها ويخضع ظروفها لحياته، (٢٩٦) وأثرت هذه البيئة بشكل بيّن في عاداتهم وتكوينهم الجسدي واللوني والتطلعات الاجتماعية ، وفي أمور عديدة أخرى (٢٩٧) وتعدى ذلك إلى التكوين الخلقي فأصبحت الصحراء دلالة على القوة والصلابة، (٢٩٨) فالعربي جزء من الطبيعة التي حوله . هو متطرف كما أنها متطرفة، إنه عنيف إلى حد التهور يجود إلى حد التبذير (٢٩٩) شديد التعصب شغوف بالحرية ذو أفق غير متسع محارب ميال إلى الخصومة (٣٠٠) .

-
- (١) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٢ ص ٦٦
 - (٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي د. سيد نوفل دار المعارف مصر ١٩٧٨ ص ٢٨، ٢٩
 - وراجع الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره د. صلاح عبد الحافظ ١ ص ٣
 - (٣) الصورة في الشعر العربي د. علي البطل ص ١٩١
 - (٤) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجبوري ص ٤٣ نقلا عن ابن خلدون في المقدمة ١ ص ٣٣٦، ٣٣٧
 - (٥) راجع مقدمة ابن خلدون ٦ - الوسطية العربية د. عبد الحميد إبراهيم ص ٥١
 - (٦) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجبوري ص ٤٨
 - (٨) الزمان والمكان وأثرها في الشاعر الجاهلي وشعره د. صلاح عبد الحافظ ١ ص ٤١
 - (٩) الطبيعة في الشعر الجاهلي د. نوري حمودي القيسي ط ٢ مكتبة النهضة العربية

كما كانت مظاهر البيئة العربية منبعاً للتصور الميثولوجي (٣٠١) خصوصاً ندرة أسباب الحياة وقتلتها كانت سبباً من أسباب خلق أساطير وطقوس التضرع والدعاء للمطر (٣٠٢) وذلك لاعتماد الإنسان البدائي على هبات السماء وترقب أوامر القضاء والقدر، ومعرفة العرافة، والقيافة (٣٠٣) والبعض ربط بين الأساطير والظواهر الطبيعية أو الجوية أو فصول السنة أو أسماء الأفلak (٣٠٤).

ولعل هذا الارتباط والفناء الشديدين مع البيئة هو الذي انتهى بهم إلى عبادة موجودات البادية كالخيل والإبل والنجوم والدبران والشعري والشمس والقمر ٠٠٠ إلخ ومع تزايد سلطان الطبيعة على الإنسان الأول تطور الفكر الديني حتى اعتقد بقوة الروح، وأله مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والرعد والعواصف والصواعق، واتخذ منها آله خير وآله شر (٣٠٥) هذه المظاهر كأوليات في الحياة استرعت انتباه البشر الأول وأدهشته، ولشدة نفوذها وتأثيرها في نفسه نبهت فيه فكرة الدين فعبد الطبيعة، (٣٠٦) والعرب الجاهليون كغيرهم من الشعوب ذات الثقافة الدنيا اعتقدوا أن الطبيعة من حولهم محوطة

بيروت ١٩٨٤ ص ٦٥
(١٠) الأسطورة عند العرب في الجاهلية د. حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٨ ص ٢٧
(١١) الحكاية الخرافية فريدريش ديرلابين ترجمة د. نبيهة إبراهيم ص ٦٠

(١) تاريخ الأديان وفلسفتها، طه الهاشمي، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٣ ص ١٢، ١٤
(٢) نفسه أنظر ٧٢، ٧٣، ٧٤

بقوى أعظم من قوى الإنسان، (٣٠٧) وكانت صحراؤهم الشاسعة منبعاً للدين الصحراوي الذي ظل زمناً طويلاً موضع صراع ونزاع شديدين من العقيدة السامية الدينية الشمالية وأختها الجنوبية، والذي تطور أخيراً إلى عبادة ثالوث الشمس والقمر والزهرة، (٣٠٨) الذي اجتذب بعلمه وسموه وخلوده نظر الشاعر العربي لا مجرد دورها الجغرافي أو الميتربولوجي كإرشاد النجم في الفلوات، وإنما كممثل لقوة يمكنها التحكم في مصير الأحياء بهطول الأمطار وكمياتها (٣٠٩) وقد امتدت هذه الرؤية متسللة إلى المطر الذي سموه "غيثاً" و"حياً" ولا شك في أن هذه التسمية مشتقة من الحياة، فإن الخصب سببها (٣١٠) ولما كان للطبيعة الأثر على الفكر الديني للإنسان على قدر تأثيرها، وسيطرتها على حياته أصبح أثرها على الإنسان العربي القديم في عصور التبدى مساعداً على تكوين تصورات تعبدية تستدعي البحث والنظر وخاصة مع العناصر التي شكلت دوراً في حياة الإنسان العربي القديم: كالشمس، والقمر، والكواكب، والنار، والماء، والنخل، والخيل، والإبل..... وغيرها.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ص ٢٤

(٤) التاريخ العربي القديم ديلف نيلسون ترجمة فؤاد حسنين مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨ ص ٢٥٣

(٥) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره د. صلاح عبد الحافظ ص ٢٢

(٦) مقدمة القصيدة العربية في الشعر د. حسين عطوان دار المعارف مصر ١٩٧٠ ص ٤٦

وراجع لسان العرب لابن منظور مادة "حياً" ح ٢ ص ١٨٧ .

وأخبار آلهة العرب القديمة مشهورة ، فالعلاقة قوية بين الطبيعة والدين والفن وهذه العلاقة ينبغي ألا تُهمل عند الحديث عن طبيعة العرب وفنهم، وإذا أهملت كانت بمثابة حلقة في سلسلة أسقطت ونظر لبعض صور الشعر التي تمثل تعاويز (٣١١) عند الإنسان الأول على أنها تكرار ونمطية وتقليد، وفي الغالب كان ذلك هو سبب التفسيرات السطحية والخطئة لشعرنا القديم - أي "ضياع العلاقة بين الدين والفن" - وإذا كان الدين هو الملمح الأول والصورة الأولية للمضامين الأدبية، وهو ذاته استلهم من الطبيعة حول الإنسان الأول التي خلقت فؤاده بجمالها ورهبتها ونفعها، فإنه يلزم مراعاة هذه الحلقة عند نقد الشعر القديم وتحليله .

وقد طالعنا دراسات في أدبنا الجاهلي مشيرة إلى أن الطبيعة هي الملمح الأول للإنتاج الفني (٣١٢) وأن الشعر الجاهلي هو شعر طبيعة (٣١٣) وأن الشعر الجاهلي رسم صورة من الأعراض الشعرية الأخرى، ٣١٤ - والحرب بالذات كصورة حية تعكس طبيعة حياتهم - وبعض الأقدمين ربط بين أعراض القصيدة وبين المؤثرات الخارجية في بيئتها (٣١٥) والبعض حتم على الناقد معرفة ما يتعلق بالبيئة الطبيعية المحيطة بالأدب (٣١٦) وبعض الدراسات تُعدُّ البيئة حُكماً فُرضَ على الشاعر لا يمكن أن ينتج إلا بالتعامل مع

-
- (١) راجع الحكاية الخرافية ص ٢٩، وتاريخ الأدب العربي بركلمان ح ١ ص ٤٥، ٤٦ ، الصورة في الشعر العربي للدكتور علي البطل ص ١٨
 - (٢) راجع شعر الطبيعة في الأدب العربي د. سيد نوفل دار المعارف مصر ١٩٧٨ ص ٨، ٩، ٣٣ ، ٣٥
 - (٣) الوسطية العربية د. عبد الحميد إبراهيم ص ٤٨٢، وشعر الطبيعة د. سيد نوفل ص ٢٤
 - (٤) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجبوري ص ٥٢
 - (٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف مصر ١٩٦٦ ح ٨ ص ٧٨
 - (٦) الشعر الجاهلي منهج دراسته وتقويمه د. محمد النويهي دار القومية للطباعة والنشر مصر ٢٠٠٣ ص ٣٠

مظاهرها والانفعال بها وقد اجتذبه بعض مظاهرها كالعلو والثبات والخلود (٣١٧) وأن الشاعر الجاهلي وقف أمام كل مظاهر الطبيعة رغم تكرارها بالوصف (٣١٨) .

وفى الحقيقة أننا لا نستطيع التقليل من قيمة هذه المقولات، وهذه الدراسات عموماً قد قدمت نتائج وحقائق حول أدبنا القديم والتاريخ للطبيعة فيه، فلا نشك في أثر الطبيعة على الفن، بل هي مادته، الأولى وملهمته الأم، التي يستمد منها صورة وأخيلته، ويشير سبتي نوموسكاتى الي أن الشعر الغنائي شديد الأصاله، ونقاط قوته وضعفه مستمدة معاً من (٣١٩) طبيعة الشعب الذي أنشده والذي كانت الصحراء موطنه وملاده، فقهوة الشعر وضعفه متوقفة على مدى صدقه في تصوير الطبيعة حوله، وقد أعد الدكتور مصطفى ناصف موطن السر في الفنون هو أن تجعل الطبيعة فكراً وتحيل الفكر لطبيعة وينقل عن " شيلينج قوله: " المادة والعقل كلاهما جانب من وحدة أسمى، إذ الطبيعة روح مرئية والروح طبيعة خفية (٣٢٠) .

ولكن ما يؤخذ على هذه الدراسات عدم التعرض للجانب الديني في المادة الفنية، والذي يمثل حلقة وصل بين الطبيعة والفن، وهى سلسلة من هذه الحلقات الثلاث، إذا أهملت حلقة الدين أُحِيل بين الطبيعة والفن وكان تفسير الشعر بمعزل عن أصوله الميثولوجية خطراً ربما اتهم الشعر الجاهلي لهذا السبب بكثير من الاتهامات غير الحقيقة، وإن شعراً يقرأ بمعزل عن أصل من أصوله يكون عرضةً للتشويه، وقد حدّر الرواد في مجال

(٧) الزمان والمكان وأثرهما في الشاعر الجاهلي وشعره د. صلاح عبد الحافظ ج١ من التمهيد ص ١٠، ١١

(٨) قراءة جديدة لشعرنا القديم صلاح عبد الصبور نقلا عن الزمان والمكان د. صلاح عبد الحافظ ص ١٦ .

(١) الحضارات السامية القديمة سبتي نوموسكاتى ص ٢١١

(٢) الصورة الأدبية دراسات فى الأدب والنقد د. مصطفى ناصف دار مصر للطباعة مصر ١٩٥٨ ص ٢٧

الذقد من قراءة القصيدة الجاهلية منعزلةً عن كل ما كان سبباً في نشأتها، لأن ذلك لا يؤدي إلى فهمها، بل العكس قد يغلفها بغموض شديد (٣٢١)؛ لأن هذا الشعر بقيمه العالية ميراث بيئة قطعت شوطاً في التطور يحتاج إلى دراسات تحليلية ترصد مقوماته الفنية وتكشف عن قضاياها المختلفة.

والأشياء التي تميز شعر الجاهليين والناجحة عن لا وعيهم ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وتظهر دون قصد منهم في تتاجهم الشعري من حين إلى حين مندفعة إلى السطح يمكن أن تشاهد وتقرأ (٣٢٢)

إذن من الضروري عند تفسير الشعر الجاهلي وتحليله الرجوع إلى قضاياها، وأصوله الميثولوجية القديمة؛ حتى لا يقع مفسروه في سطحية التفسير، واتهام هذا التراث العريق؛ لأن الشاعر الجاهلي عبّر من خلال صورته عن قضاياها وأحاسيسه ومواقفه من الناس حوله بشكل رمزي أكثر من التعبير المباشر، حتى أصبح الشعر لديهم بناءً لغوياً مجازياً حافلاً بالرموز والمعاني التي تقودنا لو فهمناها إلى الكشف عن التوترات المختلفة التي تحكم عالم الشعر، وما يتصل به المواقف والقضايا؛ لذا حتم المذهب الاسطوري على من يريد فهم هذا الشعر أن يفهم هذا الأسلوب التصويري ويحلل صورته المركزة تحليلاً يكشف أولاً عن أصولها الميثولوجية (٣٢٣) وينصح بقراءة الشعر الجاهلي قراءة جديدة للكشف عن خبايا هذا

(٣) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية د. إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٤٦

(٤) نفسه ص ٢٦٢

(٥) الشعر الجاهلي تفسيراً " أسطورياً" ص ١١٨

(٦) نفسه ص ١١٨ نقلاً عن الأساطير للدكتور أحمد كمال زكي ص ٢٦٣ .

(١) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص ٢٦٨

العالم الاسطوري الذي انبثقت فيه هذه الميثولوجيا الدينية عند العرب، وهو فكر معقد تعقيداً شديداً؛ لأنه مزيج من روافد، عناصرها المختلفة تتجمع من الديانات القديمة وثنية، وموحدة تجمعت في مجرى واحد هو ميثولوجيا الوثنية الجاهلية (٣٢٤) وهذه القراءة الجديدة أظنها تحتاج لجرأة البحث وموضوعية العلم من غير افتراء لتشويه شئ ما أو إخفاء شئ لتعليق آخر: "وإن من الإثم وتعمد الجهل أن تتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية، ربما كانت أحق من غيرها أن تدرس ويعنى بها الباحثون، وما كان لي ولن يكون لأحد من الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته أن نغير التاريخ أو أن نظهر عصراً من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه" (٣٢٥) ووجهة الباحث الحق أن يدرس ويستنبط لا أن يستهجن ويبرر لأن الدراسة يجب أن تقوم على إيراد ما كان يعتقد العرب وهذا أولى من نقد ما كانوا يعتقدون (٣٢٦) .

(٢) بين القديم والجديد دراسات في النقد الادبي د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص ٤٨، ٤٩

(٣) حديث الأربعاء د. طه حسين دار المعارف مصر ١٩٨٢ ج ١ ص ٨ طبعة ١٣

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. أحمد محمد الحوفي ص ٣٧٠

على أن الباحثة في هذا المجال سوف يلقى كثيراً من الصعوبات منها أن التوصل إلى الديانات العربية قبل الإسلام ليس من السهل (٣٢٧) وذلك لغياب التاريخ لهذه الفترات بشكل موثق، وغياب المكتشفات الأثرية المعينة على معرفة هذه الأصول الدينية علاوة على تعدد مظانّ الحقائق وتشتت جوانب الدراسة بين الجانب النظري، والجانب التاريخي، والجانب التطبيقي مما يحمل خطر التشتت (٣٢٨) .

ومن العوامل التي أشار إليها الدكتور إبراهيم عبد الرحمن في الأدب الجاهلي نفسه هو أن الألفة وكثرة الاستعمال قطعت كل ما كان بين هذه الصور في الشعر الجاهلي وأصولها الميثولوجية من صلة (٣٢٩) .

وظاهرة النار أو النور- كإحدى الظواهر الطبيعية قد احتلت مساحة كبيرة في ميثولوجيا الإنسان الأول عموماً والعربي على وجه الخصوص، في صورة شملت جوانب كثيرة من حياته، تستهدف منها مجال الشعر في المرحلة الجاهلية للكشف عن مدى الارتباط بين الأصول الدينية لظاهرة النار، وصور الشعر الجاهلي ومدى عمق الظواهر الأدبية في التاريخ الثقافي والديني لمنشئ هذا الأدب .

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٤ ص ١١ : ١٥

(٢) الصورة في الشعر العربي د٠ على البطل ص٦

وراجع المنهج الاسطوري في تفسير الشعر الجاهلي للدكتور عبد الفتاح محمد أحمد ص١٥٣

(٣) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية د٠ إبراهيم عبد الرحمن ص٢٧٥، ٢٧٦